آية الله السيد محمد حسين فضل الله

أسلوب الدعوة في القرآن

دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ـ النجف الأشرف العراق ١٣٨٠هـ

الطبعة الثانيـة ـ بيروت

الطبعة الثالثـة ـ بيروت ١٣٩٩هـ

الطبعة الرابعـة ـ بيروت ١٤٠٢هـ

الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٤١٤هـ

الطبعة السادسة ـ بيروت ١٤١٨هـ

دار الملاك للطبَاعة والنشر والتَوزيع ش. م. م.

بيروت ـ لبنان ـ حارة حريك ـ طريق المطار ـ خلف كلية الهندسة هاتف: ٨٢٣٦٢٩ ـ ٠١/٨٢٥١٢٠ ـ ٠٣/٧٥٥٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة
وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[1]

(قرآن كريم)

(١) سورة النحل، آية ١٢٥.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى.

كانت فكرة هذا الكتاب وليدة حاجة ملحة عاشها الكتاب الإسلامي، لحديث عن أسلوب الدعوة في القرآن، يرسم للدعاة إلى الله الخط الإسلامي الأصيل، الذي يجب أن يسير عليه الداعية في حياته العملية من أجل الرسالة، ويمهد الطريق للتجارب الحيّة التي عاشها النبي(ص) والأئمة(ع) من بعده، حتى تتحول في تفكير المسلمين العاملين إلى مخطط عملي يشير إلى الطريق في خطى الطليعة الرسالية، قادة وأتباعاً، لترتبط الحلقات في أسلوب العمل، كما تترابط في فكرة العمل نفسه.

وربما ازداد عمق الشعور بالحاجة إلى مثل هذا الحديث، عندما بدأنا نلاحظ أن عصور التخلّف الفكري التي عاشها المسلمون استطاعت أن تترك لنا كثيراً من المظاهر المتخلفة التي كان الدعاة يمارسونها في أساليب العمل، حتى انطلقت الفكرة التي تقول: إن الدين لا يتحمّل المناقشة ولا يشجّع على الحوار، ولا يعترف بالإنفتاح الواعي على أفكار الآخرين ومشاكلهم الفكرية وشبهاتهم وتحدّياتهم للدين.. الأمر الذي استغله الآخرون الذين يحملون أفكاراً معادية للدِّين، في شؤون العقيدة والحياة، فعملوا على الإيحاء إلى الأجيال الطالعة بأن الإيمان الأعمى هو سبيل الدين إلى حياة الناس، أما الإيمان المنفتح الذي ينطلق من خلال الحوار للبحث عن الحقيقة فهو سبيل المبادىء الجديدة التي ترسم للإنسان طريق الخلاص، من خلال حل مشاكله الاجتماعية.

وعندما تطرح القضية على هـذا الأساس، فمن الطبيعي أن يكون الإتجاه الأقوى مع الأسلوب الذي يحترم فكر الإنسان باحترام عـلامات الاستفهام التي تثور في ذاته، ضد الأسلـوب الـذي لا يسمح للفكـر أن ينطلق، ولعــلامـات الاستفهـام أن تبحث عن جواب.

وهكذا امتـدت هذه الفكـرة القائمـة المشوّهـة عن الأسلوب الإسـلامي في العمل، بفعل النماذج المتخلّفة وبـوحي الدعاية المضـادة، حتى خيّل للكثيرين خطأ الأساليب الهادئة التي تـؤمن بالكلمـة الهادئة التي تنطلق بـالمحبّـة، وبالجو المنفتح الـذي يفسح المجال في الحوار، حتى لكلمـة الكفر أن تُقال دون أن تقـابلها الإنفعالات الـذاتية التي تفتش عن الشتائم في كلمات الزندقة والكفر وغيرها..

وربما حاول بعض المؤمنين أن يبادروا إلى اتهام الذين يمارسون هذه الأساليب السلميّة بالتساهل في أمور الدين، والتهـاون مع أعداء الله، الأمر الذي يبرر لهم أن يلصقوا بهم نعوت المداهنة والمجاملة والضعف والتخاذل، إلى غير ذلك من الألفاظ التي لا تشرّف عاملاً ولا تكرم داعياً..

وقد يكون لهؤلاء بعض العذر فيما يتخيّلون، وفيما يمارسون، من خلال بعض الآيات التي يقرأونها ويجدونها تدعـو إلى الشدّة، ومن خلال بعض الأحاديث النبـوية الشريفة التي تشجّع على العنف، فيظنون أنها الدعوة الحاسمة التي تتسع لكل زمان ومكان.

ولكنهم قـد يغفلون قـراءة الآيـات الأخرى التي تـدعـو إلى الرفق واللين والتسـامح والهدوء، وينسون مراعاة الأحـاديث التي تحثّ على استعمال الأساليب السلميّة في مجال العمل.. وبهذا يفقدون معرفـة الحقيقة الإسلامية الأصيلة التي تبرز من خـلال المقارنة الواعية التي تصنف هذه الآيات في حـالة من حالات الفرد والمجتمع، وتصنف الآيات الأخرى في حالات أخرى تختلف عنها بالزمان والمكان.

وقد نجد في هـذا كله، وفي الدراسة الموضـوعيّة للقرآن، خطأ تلك الفكـرة المغرضة المشوّهة التي تعتبر الإيمان الأعمى سبيل الأديان إلى الحياة..

فقد انطلق القـرآن من فكرة رفض التقليد للعقـائد والعادات الموروثة، وتركيـز قيمة العقل كأسـاس من أسس المعـرفة الحقّـة، واعتبار الحجّـة هي الإيمان بـالحقيقة، فـلا حقيقة بدون نور، ولا نور بدون برهان يسلط الأضواء على الحقيقة.

وبدأ القـرآن ـ على هذا الأسـاس ـ يفتح باب الحوار مع الآخـرين في كل فكرة حتى فكـرة، الإيمان بوجـود الله، إلى آخـر حكم من أحكام شريعتـه، ليحّـول النظريـة إلى ممارسة عملية في مجال التطبيق.

وبهذا كان القـرآن وثيقة حيّـة للحوار الهادىء العميق، ومستنَـداً تاريخيـاً رائعاً لكل العقائد والأسـاليب الحياتيـة المتّبعة في عصر الرسـالة، التي ناقشهـا وحاكمهـا محاكمة عادلـة رائعة ليثبت للإنسـان ـ في مـدى الحياة ـ أن الإيمان المنفتح على الحيـاة هو سبيل الإسلام للوصول إلى حياة الناس، من خلال أفكارهم وقناعاتهم الذاتية.

وكان هـذا الكتاب في فترة حرجـة عاشها العـاملون في سبيل الله في مـواجهة أعنف التحدّيات التي وُجِّهت للإسلام.

وكنا نريد للعمل أن يواجه التحدّيات من خلال الرسالة، لا من خلال الإنفعالات الذاتية الطارئة التي قد تضرّ العمل، وربما تقضي عليه.

ولم يكن في المكتبة الإسلامية ـ فيما نعلم ـ كتاب يتحدث عن أسلوب الدعوة بشكل موضوعي ومستقل، الأمـر الذي جعل الشعور بالحاجـة أشدّ وأعمق، لالتقاء الجانب العملي بالجانب الفكري في ذلك.

وصدرت الطبعة الأولى في سلسلـة (مختارات إسلامية) في النجـف الأشرف ـ العراق قبل تسع سنوات، ونفـذت في فترة سريعة، لقي الكتـاب فيها التجاوب والتقـدير من مختلف الطبقات وبدأ الطلب يزداد على الكتاب بإلحاح.

والتقت تلك الرغبات برغبة الأخ السيد مهدي بحر العلوم الـذي أراد أن يكون هذا الكتاب باكورة مطبوعات «دار الزهراء» الفتيّة.

ولم يكن مني إلا أن أستجيب بكل شكر واعتزاز، راجيـاً من الله أن ينفع به العاملين وينفعني به ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون* إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[1].

محمد حسين فضل الله

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٨ ـ ٨٩.

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

فلا تزال قضية الأسلوب في الدعوة إلى الله تفرض نفسها على مسيرة العمل الإسلامي، في نطاقه الفردي والاجتماعي، وذلك من خلال المتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية التي تواجه الساحة الإسلامية في الأوضاع العامة والخاصة، الأمر الذي يجعل الداعية المسلم يشعر بالحاجة إلى أن يستنفر كل طاقاته الفكرية والعملية من أجل أن يعرف كيف يتعامل مع الواقع بأساليب جديدة، تنسجم مع مستوى التفكير فيه، وتتحرك في إتجاه الرياح القادمة من بعيد لتغير الإتجاه المضاد إلى اتجاه ملائم، لأن الإنسان الذي يظل محكوماً للذهنية التقليدية التي تفكر للحياة من موقع التجارب المحدودة بحدود الزمان والمكان، سوف يظل في مواقع التخلف بعيداً عن اللحاق بالمواكب المتقدمة الصاعدة أبداً نحو مدارج القمم.

وقد كان هذا الكتاب محاولة متواضعة في اكتشاف العناصر الأصيلة في الأسلوب الإسلامي للدعوة من خلال القرآن، وكان بودّي أن أضيف إليه أبحاثاً جديدة في طبعته الثالثة، بعد نفاد الطبعة الثانية، ولكن الظروف الصعبة التي نعيشها في لبنان، والمشاغل الفكرية والعملية الأخرى، حالت بيني وبين تحقيق ذلك، راجياً من الله أن يوفقني له في أقرب فرصة ممكنة.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن هذا الهدف قد يتحقق فيما عالجته في كتابي «خطوات على طريق الإسلام» الذي صدر قبل أكثر من سنة، وكتابي القادم «الحوار في القرآن قواعده، أساليبه، معطياته» الذي نرجو التوفيق لإصداره، فإنهما ينطلقان في إتجاه أفضل الأساليب الفكرية والعملية للوصول إلى فكر الإنسان ووجدانه، في طريقنا إلى تغيير شخصيته وحياته على أساس الإسلام.

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب في طبعته الثالثة هذه، كما نفع به في الطبعتين السابقتين، وأن يحقّق هدفنا الكبير في عودة الإسلام للحياة فكراً وشريعة ومنهجاً وحركة للحكم والعمل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

١١ جمادى الثانية ١٣٩٩هـ

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

وبعد..

فقد يكون من القضايا التي لا بدّ من إثارتها في قضية الدعوة إلى الله هو الأسلوب العملي الذي كانت تتحرك فيه الدعوة الإسلامية في الشخصية الذاتية للداعية، فيما تشتمل عليه من عناصر القوّة والضعف، من حيث تأثيرها سلباً أو إيجاباً على النتائج الحاسمة للدعوة.. وهذا ما أثاره القرآن الكريم فيما حدثنا عنه من شخصية الرسول (ص) في خلقه العظيم الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[1]، وفي طريقته في مواجهة السلبيات المتنوّعة الموجّهة إليه من قِبَل الآخرين، فيما يحمله قلبه من وداعةٍ ورقةٍ ورحمة، تحتوي كل ما حولها ومن حولها في عملية حبٍ وحنان، وفيما يفيض به لسانه من كلمات اللين والرفق لتنفذ إلى قلوب الآخرين بأقرب طريق، لتلقي بهم في الأجواء الخيّرة المنطلقة بكل إيجابيّات الساحة وحركاتها، وذلك هو أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿**فبما رحمةٍ من الله لِنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك**﴾[2].

.. وقد نلتقي في هذا اللون من حركة الشخصية الإسلامية في شخصية الرسول الداعية فيما تصوره لنا الآية الكريمة: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما**

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩

عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1].

فقد نجد فيها الكثير من الملامح الإنسانية الفيّاضة بكل المعاني الروحية، التي تنساب في مشاعر الآخرين روحاً تنبض باللطف والأريحيّة والحياة، لتمتص كل ما في داخلها من آلام ومشاكل وأزمات فتحوّلها إلى أفراح وانفتاحاتٍ وحلولٍ تغذّي في الإنسان معنى الطمأنينة والهدوء والسكينة الروحية. . فليس الداعية هنا إنساناً يمتهن الدعوة ويجترّ أساليبها ويستظهر ألفاظها وقواعدها في طريقة آليّة، بل هو عنصر حيّ يحوّل الكلمة إلى حركةٍ مليئةٍ بالقوّة والحياة. . ويثير في الساحة أجواء الرأفة والرحمة والحرص على كل ما يبني حياة الإنسان، ويوحي بالإحساس الدافق بالمشاركة، فيما يثقل الروح والفكر والضمير من آلام ومتاعب. .

وهكذا تتوارد الآيات لتجعل من شخصية الرسول النموذج الأكمل في حركة قصة الكلمات فيما تعبر عنه من معان، أو الخطوات فيما توحي به من إيحاءات. . بل هي قصة مشاعر وأحاسيس تجاه الآخرين، فيما يمثله من مواقف تجسّد الروح وتفتح الأفق، وتحتوي الساحة بإيجابياتها وسلبيّاتها، وتحبّ الناس فتجعل من الدعوة فعل محبّة وانفتاح، بدلاً من أن تكون فعل كره وانغلاق. .

وذلك هو ما يجب أن يتمثله الدعاة إلى الله والعاملون في سبيله في تربيةشخصيتهم على الآفاق الروحية الجديدة للدعوة. . ليكون الأسلوب هو الرجل من حيث يكون الرجل هو الدعوة في روحيتها ومفاهيمها وآفاقها ومواقفها. .

وفي هذا الجوّ نؤكد على متابعة النموذج القرآني للداعية من خلال شخصية الأنبياء الدعاة، ولا سيما شخصية النبي محمد(ص). . فقد اكتفى القرآن بتصوير حياتهم في خط الدعوة وتحدث عن ملامحهم الشخصية في هذا النطاق، ولم يتحدث عن الملامح الأخرى الذاتية البعيدة عن هذا الخط، ليكون ذلك بمثابة الإيحاء بأن الإرتباط بهذه

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

الشخصيات يمثّل الإرتباط بالدعوة لا بالشخص، وبذلك يكون الحديث عن صفاتهم الذاتية في غير جانب الدعوة والقدوة مجرد حديث يثير الزهو ويضيع في الفراغ.

* * *

ربما لم نقصد إلى الإفاضة في هذا الجانب من الحديث، لأننا نحاول أن ننطلق معه في كتاب حول «الرسول الداعية في القرآن». بل كل ما عندنا هو إثارة التفكير نحو انطلاقةٍ جديدة في تربية الداعية على قاعدة الدعوة في حركة الشخصية، لتتحرّك الساحة بالدعاة الذين يمثلون القدوة في الفكر والموقف، فلا تبقى القضية لدينا أصواتاً تنطلق وهديراً يتحرّك دون أن يهز حرارة الإيمان في الأعماق..

وأخيراً..

إننا نعود من جديد لنقدّم هذا الكتاب ـ في طبعته الرابعة ـ في أمل كبير أن يتحوّل أسلوب الدعوة في القرآن إلى معاناة عملية في خط الدعوة الإسلامية.. وذلك من أجل أن يلتقي العاملون على القاعدة الصلبة التي تثير الطاقات الفاعلة من أجل الفجر الإسلامي الجديد الذي يولد في العيون المنفتحة، التي تحدّق في الآفاق، بحثاً عن إشراقة الإسلام في الفكر والقلب والضمير والحياة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد حسين فضل الله الحسني
١٣ رجب ١٤٠٢هـ

مقدمة الطبعة الخامسة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد..

فقد تكون مشكلة الأسلوب في حركة الحوار الفكري ـ الدِّيني في الواقع الثقافي والحركي للإنسان أنّه قد ينطلق في الأجواء الضبابيّة النفسية التي يعيشها كل فريقٍ تجاه الفريق الآخر، بحيث تتحوّل الحالة الداخليّة الشعورية إلى وضع ذاتيّ معقّد يبحث عن الكلمة التي تنفِّس عن العقدة بدلاً من الكلمة التي تحلّ المشكلة، وينطلق بالأسلوب الذي يوحي بالإثارة بعيداً عمّا ينفتح على التفكير.

وهذا هو ما نلاحظه في أساليب الكثير من الشعوب التي عاشت مع الأنبياء، فواجهتهم بردود الفعل المثيرة التي تعمل على تدمير النبي الداعية نفسياً وإسقاطه روحياً وإبعاده عن الجوّ الحواريّ الهادىء الذي يحاول ـ من خلاله ـ إفساح المجال للدعوة أن تجد لها متنفساً في الهواء الطلق للفكر، ومجالاً في حركة العقل الباحث عن الحقيقة؛ فكانوا يطلقون في وجوههم المسلّمات الفكرية الموروثة لديهم ليكون ذلك أساساً للرفض الحادّ السريع، بعيداً عن أيّة فرصةٍ فكرية حواريةٍ، باعتبار أنّ المسألة لا تقبل النقاش عندهم، ليكون الخيار لديهم دائراً بين أن ينسحب الأنبياء من رسالاتهم ليقبلوا بالواقع الموروث المتخلّف، وبين أن يخرجوا من الأرض، أو يخضعوا للاضطهاد تحت تأثير التهديد بالقتل أو نحوه.

ولذلك كان الأنبياء يُعانون من هذا الأسلوب العدواني الذي لا منطق له، ويحاولون أن يبحثوا عن الكلمة الهادئة، والموقف الصابر، والأسلوب العملي في صدمةٍ روحيّةٍ منفتحةٍ على العمق الإنساني الذي يختزن في داخله الخصائص العقلانيّة الراقدة تحت ركام من التقاليد البالية والعادات المتخلّفة والرواسب المتعفّنة، كتجربةٍ للوصول إلى هزّةٍ داخلية تنتفض في مواجهة ذلك الضياع النفسي الفكري.

وإذا لم تكن الجهود الفردية ـ في هذا الاتجاه ـ لهذا النبي أو ذاك منتجةً بشكل عام، فإنّها كانت تحصل على بعض النتائج الجزئية في إيمان بعض الناس هنا وهناك، ليكونوا القاعدة للمستقبل الإيماني الرسالي في المنطقة، من خلال وجود مجتمع إيماني صغير ينمو بشكل تدريجي في الواقع الشعبي البسيط بحيث يقف حاجزاً بين المستكبرين والمترفين الذين يصدّون عن سبيل الله، وبين الوصول إلى غاياتهم في شموليّة الرفض للرسالات وللرُّسل، لتبقى الساحة للكفر كله وللاستكبار كله.

وهذا هو الذي ينبغي للدعاة المسلمين أن يتوفّروا على دراسته في تجارب الأنبياء في أساليبهم المتنوّعة، ومواقفهم القوية الهادئة، وفي عقلانيتهم الفكرية في عملية مقارنة بالأساليب الحادة، والمواقف المتشنّجة، والذهنية الانفعالية العدوانية في حركة القوى المضادة، ليخرجوا من ذلك بالمنهج التطبيقي لحركة الدعوة في أسلوبها وطريقتها في مخاطبة الآخر ومواجهة التحدّي، وفي دراسة النتائج الإيجابيّة هنا والسلبية هناك، للوصول إلى التخطيط الواعي للمستقبل الذي يتحرّك نحوه الدعاة إلى الحق في مواجهة الأوضاع المعقّدة، والأساليب المعقّدة، والتحدّيات الحادّة. فقد نلاحظ أنّ التجربة التاريخية إذا كانت محكومةً بظروف موضوعيةٍ محدودةٍ بحدود الزمان والمكان والأشخاص، فإنها قد تشتمل على بعض العناصر الحيّة في الخصائص الإنسانية التي لا يختلف فيها زمان عن زمان، أو مكان عن مكان، أو شخص عن شخص، ممّا يجعل التاريخ يعيد نفسه في السنن التاريخية العامّة في حركة المجتمعات في نقاط ضعفها وقوّتها، وفي طبيعة المؤثّرات الداخلية والخارجية في تكوين الذهنية الضيّقة أو المنفتحة؛ الأمر الذي يجعل الحركة الإسلامية في حالة انفتاح على التجارب الإنسانية في التاريخ،

فـلا تكون مفصـولـةً عن حركـة الإنسـان في مختلف اتّجاهـاته، لا سيّما إذا كـانت تلك التجارب تنطلق من التجربـة الرِّسالية لـلأنبياء وللمؤمنين من حولهم، وللـدّعاة الذين جاءوا من بعـدهم، في استلهامٍ فكـريٍّ حركيٍّ للمفـاهيم الرسالية، وفي حركـةٍ واقعيةٍ عملية في المسألة التطبيقية. فقد يجدون في ذلك نَله بعض ما يربطهم بالوحدة الرِّسالية التاريخيّـة في الفكرة والأسلـوب، ويشجّعهم على إنتاج أسلـوب جديـد لا ينفصل عن الأساليب المتنوّعة في المسيرة الرِّسالية الـواحدة التي توزّعت الأدوار في حركة الأجيال، في الخطة الموحَّدة في إيصال الإنسان إلى الله، وانفتاحه على الإيمان به.

* * *

وإذا كـان بعض الناس يثيرون ــ في هذا المجـال ــ الفكرة التي تـركّز على أنّ تجربـة الأنبياء لا تصلح أن تكون أساساً للتجربة الجديدة للدعاة العاملين في حقل الدعوة إلى الله، لأنّ الأنبياء يتميّـزون بالروحيـة العالية، والسلـوك المعصوم، والفكـر القريب من الله، والخصائص الذاتية التي لا يقترب البشر من مستواها؛ فلا يملك الناس أن يقوموا بما قامـوا به، أو يصبروا على مـواجهة المشاكل كما واجَهـوها، أو يتحمّلـوا الأعباء التي تحمَّلوها، لأنّ ذلك هو الفرق بين النبيّ والناس الآخرين، تماماً كما هو الفرق بين القمة والسفح..

إذا كان البعض يثيرون مثل ذلك، فإنّنـا نعتقد خطأ هذه الفكرة، لأنّ الله سبحـانه أرادَ لنا أن نتمثّـل الأنبياء في حيـاتهم كلها ليكونـوا القدوة والأسـوة، ممّا يـوحي بأنهم لم يتحرّكوا من قوّة روحيةٍ بعيدةٍ عن طـاقة البشر، أو من خطةٍ غيبيّة غارقةٍ في الضباب، أو من فكـر ينطلق من الأسرار العميقة الخفيَّـة التي لا يدركهـا الناس، بل تحرّكوا مـن قوّة بشريّة متحرّكـة في خط الرسالة، ومنفتحةٍ على مفاهيمهـا؛ فهم السائرون ـ في تجربتهم العملية ـ على المنهج الواقعي للرسالة في حركيتهـا الإنسانية؛ فقد كانوا بشراً يتحرّكون في موقـع المثال الذي لا ينفصل عـن إمكانات الـواقع، ليبقى مع الناس في قـدراتهم التي يوجِّههم إلى أن يحرّكـوها في اتجاه حـركة القيمـة الروحيـة الأخلاقيـة في داخل تطلّعاتهم الإنسانيّة.

ومن الطبيعي أن لا يعني ذلك الحديث عن مساواتهم للناس في مستوى القيمة الروحية والفكرية والعملية، بل تبقى لهم الميزة التي تميّزهم عن الناس، مما جعلهم في المواقع الكبيرة التي كانوا فيها من المصطَفين الأخيار الذين اصطفاهم لرسالته، ولكن ذلك لا يبتعد بهم عن الإمكانات البشرية فيما يأخذون به أو يدعونه من قضايا الرسالة والحياة، بحيث تنطلق الدعوة إلى الناس ليقتدوا بهم، وليتأسّوا بسيرتهم، كما جاء في قوله تعالى: ـ في الحديث عن التأسّي بالنبي محمد (ص) ـ **﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾**[1].

* * *

وهناك نقطة أخرى لا بد لنا من إثارتها في هذا الحديث، وهي أنّ قائلاً قد يقول: إنّ الأكثرية من الأنبياء، لا سيما الأنبياء المحليّين الذين يشبهون الدعاة على مستوى محدود، في أيّامنا هذه، لم يستطيعوا أن يحصلوا على نتائج كبيرة من التأثير في مجتمعاتهم، بالرغم من كل الأساليب الروحية العقلانيّة التي حرّكوها في اتجاه قضية الدعوة إلى الله سبحانه، بينما نجد الآخرين من أصحاب الدعوة المضادّة قد تمكّنوا من أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم وأساليبهم على الواقع من حولهم، أو ما يتجاوز مواقعهم، بشكل كبير جدّاً. فهل يعني هذا أنّ الرسالات لا تملك عناصر النجاح في واقع الإنسان، لأنّها لا تستجيب لحاجاته وتطلّعاته؟ أو أنّ أسلوب العنف هو الأسلوب الذي يمكن أن يركّز مواقع القوّة لأصحابه، لأنّ الناس تخضع للقوّة في مسألة الانتماء والانضباط، ولكنها لا تخضع للحقّ ـ وحده ـ ولأساليبه العقلانية الهادئة في حركة الدعوة، إذا لم يكن ذلك مصحوباً بشيء من القوّة التي تطرح الترغيب والترهيب اللّذين يملكهما الأقوياء.

* * *

إنّنا نلاحظ على هذا القول أنّ المسألة ليست دقيقة في هذا الطرح الفكري؛ فلم تكن الرسالات بعيدة عن الأسباب الداخلية الكامنة في عناصرها الفكرية والعملية للنجاح؛

---

(١) الأحزاب، الآية ٢١.

فقد طرحت قضية المساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات، ووقفت ضد سيطرة المستكبرين على المستضعفين، واعتبرت العقل أساس القناعة، ورأت في مفهوم الوعي تأكيداً للعناوين العقلية لا إسقاطاً لها، وركّزت على العدل كأساس للعلاقات الإنسانيّة في دائرة الحكم في علاقة الحاكم والمحكوم وفي العلاقات العامّة بين الناس، وواجهت الإنسان في نقاط الضعف ونقاط القوّة، في خطّة تحوّلٍ عملي تتبدَّل فيها نقاط الضعف إلى نقاط قوّةٍ، وتعمل على تنمية نقاط القوّة فيه بطريقةٍ واقعيةٍ. . وجعلت الحوار أساس حركية الخلاف الفكري، والحجّة، قاعدةً للقناعات الفكرية، إلى غير ذلك من العناوين التي تنظم الحياة على أساس تحقيق المصلحة الإنسانية العليا وتركيز وجود الإنسان كخليفةٍ لله على الأرض، وكمخلوق أرادَ الله له الكرامة بين مخلوقاته. ولكن مسألة تغيير الإنسان ليست من المسائل البسيطة السَّهلة التي يمكن أن يختصرها رسولٌ في تبشير أو إنذار، أو يسرع بها داعيةً في حركة الدعوة في خطابٍ أو علاقةٍ أو احتصان أو تحريك، بل هي من المسائل المعقَّدة، لأنّها ترتبط بالمنطقة العقليّة أو العاطفيّة أو الغريزيّة التي تتأثّر بما حولها ومن حولها، لأنّ الإنسان ليس مخلوقاً جامداً في خصائصه الذاتية، بل هو مخلوق متحرِّك متغيِّر أمام كل الأوضاع التي تختزنها مشاعره وحاجاته وتطلّعاته، مما قد يجعله خاضعاً للقلق الضائع الباحث في متاهات الحياة عن شيء لا يدرك حقيقته، ولا يعرف طبيعته، ليعيش قلق المعرفة، والحاجة والغريزة بدرجات مختلفة، ولتختلف أحواله بكلمة يسمعها، أو نظرةٍ ينظر بها، أو لمسة حنان هنا، أو صدمة قسوةٍ هناك، أو لفتة من إنسان آخر، أو إيحاء طائر، أو إيماءة سريعة، أو حركةٍ مثيرةٍ، أو وضعٍ مثير يحيط به ويتأثّر به في فكره وشعوره.

وهذا هو الذي قد يجعل الفكر ـ أيّ فكر ـ والرسالة ـ أيّة رسالة ـ في حالة طوارىء أمامه، لملاحقة كل المؤثّرات الداخليّة والخارجيّة في مواقفه وقراراته؛ فقد يجد وضعاً يجذبه إلى الأمام، ليواجه معه، وضعاً آخر يشدّه إلى الخلف، ولينطلق في حالة ضعف أمام قوى المال والسلطة والجاه والسلاح ونحوها ليعيش شلل الإرادة، وضعف الموقف، وضياع الطريق.

هذا من جهة . .

ومن جهةٍ أخرى فإنّ الرّسالات تتّجه إلى تنقية الذات الإنسانيّة من كل الأفكار التاريخيّة المتخلّفة المرتبطة بعلاقاته العاطفية في التاريخ، مما تحوّل إلى حالةٍ من التحجّر الفكري، والضياع الروحي، والتيه الأخلاقي، بحيث تتحوّل حركة الرسالات إلى ما يشبه الحرب بين التخلّف المقدّس في ركام التهاويل المتنوّعة التي تحوّل الخرافة إلى قيمةٍ أقوى من الحقيقة، وتجعل الأخطاء في موقع يتميّز بالقداسة، وبين الفكر المتطلّع إلى الصعود الإنساني في درجة الوعي والطمأنينة والإيمان، ولذلك فإنّ الرسالة تنثر البذور، وتهيّىء الأجواء، وتحرث الأرض وتثير الاحتمالات، وتشقّ الطريق، وتفتح الآفاق، انتظاراً للربيع القادم الذي قد لا يكون فصلاً ينتظره الناس بعد الشتاء في حركة التاريخي السنوي، بل قد يكون مرحلةً طويلةً في عملية نموّ البذور واهتزاز الأرض وتطوير الواقع واستشراف الآفاق وسلوك الطريق.

وقد استطاعت الرسالات السماويّة أن تثبت في حركة الإنسان في التاريخ، على مستوى أفكارها وسلوكياتها وتقاليدها وعاداتها ورواسبها العميقة في ذاته، أكثر من أيّ فكر آخر، بالرغم ممّا أحاطَ بها في تصوّر الإنسان لها، أو في طريقة حركته فيها، أو في مدى التزامه بها من الناحية العملية؛ فإنّ ذلك لا يلغي التزامه المبدئي بها واعتبارها عنواناً لحياته ولكل علاقاته الأخرى في الحياة، مما يعني أنّ الرسالات قد ربحت الرهان عندما راهنت على المستقبل الذي قد يملك من الفرص للعاملين في خط التغيير ما لا يملكه الحاضر.

وهذا هو ما ينبغي للرساليين أن ينطلقوا به في إيمانهم بواقعية الفكر الرسالي على مستوى قدرته على مواجهة التحديات الصعبة في البداية، لتكون النتائج له في نهاية المطاف، مع الملاحظة الحاسمة، وهي أنّ من الصعب أن يتطلب الرساليون من الناس أن ينفتحوا في التزامهم بالرسالة فكرياً وعملياً، بنسبة المائة في المائة، لأنّ ذلك لن يحصل إلاّ لمن ملكَ زمام كل فكره وعاطفته وسيطرَ على كل مواقع إنسانيته ممّن يعيش العصمة من الخطأ والانحراف.

أمّا الإنسان العادي فإنّه يأخذ من الرسالة بالمقدار الذي يأخذ به من الواقع الداخلي الذي يعيشه في ذاتـه، والواقع الخارجي الذي يتأثّر به في حياتـه، الأمر الذي يجعل من الرّسالة عنوانـاً للفكر وللحركة وللحياة بدرجات متفاوتـة في التصوّر والعمل؛ وهذا هو الذي يجعلنـا نثير الفكرة التي تقـول: إنّ الرّسالات لم تنطلق ليلتـزمها الإنسـان مائة في المائة، ولكنّهـا انطلقت لتواكب الإنسـان في عمليـة إثارة وتـوجيـه ونقد وتحريك تبعـاً للظروف المحيطة بها في حركة الظروف التي تحيط به.

***

إنّ دراستنا للقرآن الكريم في منهجه العملي في مسألة الدعوة إلى الله في الأسلوب، في الصعيـدين النظـري والتطبيقي تستطيع أن تمنحنـا القـاعـدة العـامّـة في الخط الحركي الإسلامي، لأنّه لم يقتصر على عـرض الخط العريض للمنهج، بل انطلق مع التفاصيل الميدانيـة، ولم يستغرق في المفردات المضمونيّـة للفكرة، وفي الجوانب الفنية البـلاغية في الأسلوب، بل انفتح على شخصية الداعية في روحيّته وأخـلاقيّته ومرونته وفهمه للناس من حولـه، من خلال النماذج الرائدة للـرّسل الدعاة إلى الله، وعلى الظروف الموضـوعية المحيطة به، ممّا يجعلنـا نعيش كل الواقع الذي تتحرّك فيه الرسـالة في الشكل والمضمون لنستـوحي كل مفرداتـه التـاريخيـة في بعض الإيحاءات الفكريـة والعمليـة في مفرداتنـا الحاضرة والمستقبلة.

وربما استطعنا أن نؤكـد المقولة الإسلاميّـة التي تحدَّثنا عنها ــ ولا نزال نتحدّث بها ـ وهي أنّ القرآن الكريم هو الكتاب الذي قاد ـ بمنهجه العملي ـ حركة الدعوة الإسلاميّة في مسيرة النبي محمد (ص) في الـدعوة إلى الله والجهاد في سبيلـه، لأنّه كـان يُلاحق كل المشاكل التي كان يعيشها المسلمون في قضايـاهم التبليغيّة والاجتماعية والفردية والأمنية والسياسية والاقتصادية، ممّا قد يختلفون فيه، بطريقة ذاتية فيما بينهم، أو مع الآخرين، فينزل الله آياته ليعالج المشكلة، وليحسم الخلاف، وليحدّد المواقف، وليرسم الخطوط، وليوجّه الجميع نحو الهدف الكبير.

وعلى ضوء ذلك كنا نقول: إنّ القرآن لا يفهمه إلاّ الحركيون الإسلاميون الواعون المنفتحون على الحياة من خلال الرسالة، وعلى الرسالة في حركة الإنسان في الحياة، لأنّ المفردات اللغوية في القاموس لا تستطيع أن تفسّره للناس إلاّ من خلال الواقع الحركي للحياة وللإنسان، ممّا يجعلنا نشعر أنه يتجدّد في حركيته كلما انطلق في الحياة بشيء جديد، تماماً كما هي الحياة عندما تتجدّد في كل ليل أو نهار ليتجدّدا في حركتهما فيها.

وفي هدى ذلك نريد للعاملين في خط الدعوة إلى الإسلام وإلى الله أن ينفتحوا على كتاب الله ليفهموه وليتدبّروا آياته وليدرسوا شخصيّاته المستقيمة والمنحرفة، وليتعرّفوا ساحات الصراع التي خاضها المؤمنون من قبلنا في مسيرة الأنبياء، بين الكفر والإيمان، والخير والشر، والعدل والظلم، والمستكبرين والمستضعفين، لننطلق إلى الحياة بوعي إسلامي ليستهدي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في المضمون الإسلامي في العقيدة والشريعة والحياة، وفي الأسلوب المنهجي في حركة الدعوة إلى الله، لأنّ بعض الإسلاميين قد أخذوا بالإسلام، في مضمونه من مصادره الأصيلة ولكنّهم أخذوا بالأسلوب من مواقع غير إسلامية في مفرداتها في الواقع العملي، الأمر الذي أدّى إلى كثيرٍ من السلبيات الاجتماعية والسياسية والأمنية، ومن المشاكل العملية من خلال الذهنيات المنفعلة المتشنّجة التي أفرزها الواقع السلوكي في خط تلك التيارات غير الإسلامية.

إنّنا ندعو إلى أن يكون الإسلام ديننا في الفكرة والأسلوب معاً، في الخط العام، لنواجه الحياة في ساحاتها الواقعية الميدانية فنستفيد من تجدّد الأشكال المتنوّعة في حركة الأسلوب في تفاصيل العلاقات الإنسانية، لنعيش ذهنية الإسلام في أفكارنا، ومرونة المعاصرة التي لا تبتعد عن القاعدة الإسلامية العامّة في أساليبنا.

***

وهذا الكتاب الذي كان أوّل كتاب كتبته، من خلال الحاجة الثقافيّة الحركيّة الإسلاميّة إلى أمثاله، يمثّل المرحلة الذهنيّة من نموّي الفكري الثقافي؛ وقد استطاع أن يأخذ موقعه في المراحل الماضية للعمل الإسلامي؛ فقد وجد فيه العاملون للإسلام

بعض الإضاءات الحركيـة في أسلوب الـدعوة في القرآن وأرجـو أن يجدوا فيه ــ في طبعته الخامسة ــ إضاءات فكـرية فيها تتجـدّد ساحـات الصراع وتشتدّ الضغـوط على الحركة الإسلاميّة في العالم التي تتوزّع مواقعهـا أساليب الرفق والعنف، وتتنوّع الحرب الإعلامية ضدهـا من خلال الاستكبار العالمي الـذي وجد في الإسلام الحركي إسقاطـاً لاستكباره وكفره وأطماعه في مقدرات الشعوب المستضعفة، وفي مقدّمتها الشعوب الإسلامية.

إنّني أسأل الله أن يوفّق العاملين جميعاً للوعي الفكري والعملي لتستقيم خطواته على الـدرب الإسلامي الطـويل، وأن يوفّقني للسير على خط الهدى في فهم كـلام الله، وفي استلهامه، وفي الانفتاح على الواقع الإسلامي كله من خلال وعي الواقع الإنساني كله، من أجل عودة الإسـلام إلى الحياة في انفتاحه على الآخـر بالحوار، وفي التزامه بـالأسلوب الحكيم القـائم على الحكمـة والموعظة الحسنـة والجدال بـالتي هي أحسن، في احترامـه للإنسان وفي ثقته بالعقل الذي هو الرسول الباطني والذي يتكامل مع الرسول الخارجي في خط النبوّات، ليبقى مع الحقيقة الإلهية الـواضحة التي لا يغطيها سحاب الشكوك، ولا ضباب الأحقاد. والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

٢١ شوال ١٤١٤هـ

بيــروت

مقدمة الطبعة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد، فلا تزال مسألة الدعوة إلى الإسلام خاضعة للكثير من التعقيدات الفكرية والشكلية والحركية من حيث ثقافة الداعية وسعة أفقه ومستوى حركيته فإن هناك الذي يبقى مستغرقاً في الفكر التجريدي، والذهنية المتخلفة، والأسلوب الجامد انطلاقاً من أنه يعيش في الماضي من دون أن يطل على الحاضر في تجديده وإبداعه في الجانب الثقافي الفني.

وهناك الذي يبقى حائراً بين القديم والجديد فلا يعمل على أساس الدخول في مقارنة بينهما بالمزج بين الإيجابيات هنا وهناك وطرد السلبيات للإنفتاح على الإنسان المعاصر بالغنى الثقافي الذي يأخذ من كل عصر خصائصه فلا يلغي الماضي ولا يتجمد عنده، بل يظل في حركةٍ تصاعديةٍ تطوّر الإنسان وتتطور معه.

وهناك الإنسان الذي يدخل إلى العصر في انبهارٍ وجداني لا يدقق معه في نقاط ضعفه فيهمل الماضي تماماً تحت عقدة التجديد كيفما كان، ونحن نعتقد أن المسألة الاسلامية في الدعوة تفرض على الداعية أن يدرس الإسلام في أصالته ويتحرك معه في الاجتهادات المتنوعة التي عاشت معه، فلا يقدّس القديم، ولا يرفض الجديد أو ينبهر به ليسقط أمامه. بل يعمل على أن يجتهد في فهم مصادره الأصيلة كما اجتهد الأولون على أساس القواعد المتبعة في فهم النص وتقعيد القواعد، وعلى ضوء ذلك يكون خياره في اختيار الأسلوب في العرض وفي الأداء وفي الحركة

ليواكب حركة العصر في أسلوبه من خلال مواكبته لحركة الإسلام في أصالة فكره فإن مشكلة الكثيرين من العاملين للإسلام أنهم يحدّقون في ذواتهم أكثر مما يحدّقون بالإسلام فيحبسونه في المفاهيم التي ورثوها أو إلفوها من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فيها.. ثم في تأكيدهم على الهوامش الصغيرة والجزئيات المحدودة، والزوايا الضيقة أكثر مما يؤكدون على القضايا والخطوط الكبيرة، والمفاهيم العامة. الأمر الذي أربك الواقع الإسلامي، وجعله يعيش في دائرة التخلف، وأدخله في صراعاتٍ جانبيةٍ تقتل كل الحيوية في روح الأمة وحركتها.

إن مشكلة الأسلوب الآن، هي مشكلة الذهنية المحدودة، والأفق الضيق مما يعيش فيه الكبار والصغار، ولا بد للعاملين في حقل الدعوة أن يواجهوا المسألة بكل وعيٍ ومسؤوليةٍ وانفتاحٍ وإبداع لأن القضية تتصل بمصير الإسلام في حركة الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي في العالم، مما يفرض علينا أن نعزل كل الذين يريدون أن يجمدوه ويحصروه في زنزانات التخلف ويدفعوا به إلى متاهات الضياع.

إن الإسلام أكبر من الجميع، وعلينا أن نكون معه لا مع الأشخاص مهما كانوا كباراً لأن مسألة الحجم تتصل بالمضمون ولا تتصل بضخامة الموقع.

وأخيراً هذا الكتاب الذين كان باكورة مؤلفاتي الإسلامية أرجو أن يجد فيه الناس بعض الجديد الذي يشير إلى المرحلة التي انطلق فيها، وإلى الآفاق التي لا زال يعمل على أن ينفتح عليها سائلاً الله سبحانه أن ينفعني به ويوفقني للجديد في الفكر الإسلامي وفي أسلوب الدعوة والحركة والموقف والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٨ جمادى الأولى ١٤١٨هـ

محمد حسين فضل الله

القسم الأول

تمهيد

قد نلتقي ـ في حياتنا العامة ـ بإنسان يعرض قضية أو فكرة أو ينقل واقعة من الوقائع، فلا يجد قبولاً لما يعرضه أو ينقله، بل قد يجد العكس من ذلك، رفضاً وانتقاداً ومعارضة . .

وقد نلتقي بهذه القضية، أو الفكرة، في حديث إنسان آخر، دون زيادة أو نقصان . . فنقبل عليها في طمأنينة وراحة وإذعان .

وربما نشاهد بستاناً، يحوي في أرضه شتّى الألوان والأصناف من الأشجار والأزهار، فلا نستمتع به ولا ننجذب إليه، وإنما نمرّ به مروراً عابراً، كما يمر الإنسان بأي منظر عادي . . ولكننا قد نمرّ ببستان آخر لا يختلف عنه في طبيعة ما يحويه، وفي وحدة الموقع، فيستلفت نظرنا ويستوقفنا، لنحس فيه بالجمال يتجسّد في كل جانب من جوانبه، ونتلمس الرقّة والسحر واللطف متناثرة في أرجائه هنا وهناك .

وقد ندخل إلى دار فنجد مجموعة من الأثاث والأدوات المنزلية منتشرة في جوانب المنزل، فلا تلفت نظرنا ولا تستثير اهتمامنا . . بينما نجد نفس هذه المجموعة في دار أخرى باعثة على التأمل والملاحظة وسكون النفس وارتياحها في شعور عميق بالمتعة والإنشراح .

. . قد يلتقي الإنسان بالكثير من هذه النماذج في حياته، فيحّس بإحساس مختلف مع كل واحد منها، وقد لا يلتفت إلى منشأ هذا الاختلاف، لأن مثل هذا المنشأ غير منفصل عن ذاته، وبعيد عن مشاعره وأحاسيسه .

فما هو؟

إنـه ليس في الفكـرة، ولا في المنظـر. . فالفكـرة نفس الفكـرة، في جمالها وقبحهـا، والمنظر نفس المنظر في حسنه ورداءته.

فلم يبقَ إلا الأسلوب. . فهو الذي جعلنـا نتقبل الفكرة من شخص، ونرفضها من آخر. فقـد عرف الأول كيف ينفذ إلى الوتـر الحسّاس الذي يضرب عليـه، وأدرك مواطن الضعف ومواطن القوة في حياة الآخرين الذين يستمعون إليه، فاستغلّها في الوصول إلى هدفه وغايتـه، بينما جهل الثاني كل ذلك، وانطلق في وضع معاكس يسيء إلى الفكرة، لأنه بعيد عن روحها وجوّها وخطّها العام.

وفي البيت والبستـان رأينا الذوق الجمالي يفـرض نوعـاً من التنظيم والتنسيق، يحبّب المنظـر إلى النفس، ويكسبـه رونقاً وروعـة، فيما يبـدعـه فيه من تنـاسق بين الأصنـاف وانسجام بين الألوان. . بينما افتقدنا ذلك في المكان الآخر لفقدان الذوق الجمالي لديه.

إنـه في الفكرة أسلـوب العـرض، وطـريقة الأداء. . وفي البيـت والبستان أسلـوب التنسيق والتنظيم.

إننا نلتقي بالأسلوب في كل مـن الموقعين والحالتين، ولكنه أسلوب جميل في أحدهما وقبيح في الآخر.

* * *

ومن هذه الصورة التي قدمناها ندرك صلة الأسلوب بحياتنا، فهو لازمة من لوازمها التي لا تنفصل عنها، بل تسير معها في كل مجال حتى النهاية. وهو لذلك يتحكم فيها كما تتحكم الضرورات بنا في غمار الحياة.

إنه يبدأ مع الحقيقة عندما توجـد وتنطلق لتأخذ مكانها في الحياة، لأنه الإطار الذي تعيش فيه، والصورة التي تبرز بها.

ولا تختلف الحقيقـة ـ في حـاجتها إلى الأسلـوب ـ بين أن تتمثل في وجودنـا الحسي الخارجي، وبين أن تتمثل في وجـودنـا الفكـري الـذهني؛ لأن الأسلـوب ليس شيئـاً منفصلاً عن وجـودها، وليس ترفـاً نستخدمه في سبيل نـزوة فكرية أو حسيـة، بل هو متصل بطبيعة وجودها. . تماماً كما يرتبط وجود المادة بالصورة.

وبهذه النظرة نستطيع أن نتلمس الأسلوب في كل وجه من وجوه حياتنا من البدء حتى النهاية . . فبداية الحياة تخضع لأسلوب خاص في وجودها ، وطريقة منظّمة تتنوّع حسب تنوّع الأنواع والأجناس . . فهي في الحيوان غيرها في النبات ، وفي النبات غيرها في الجمادات ؛ فلكل نوع أسلوب يخضع لأساليب معينة نتلمسها في كل لحظة من لحظات حياتنا التي نمارس فيها عملية الوجود والنهاية ــ كالبداية ــ في تنوع الأسلوب واختلافه .

وبهذه النظرة ـ أيضاً ـ نستطيع أن نتلمسه في المعاني التي أراد الله لها أن تتمثل في الحياة ، لتشيع في وجودنا المرح والبهجة والسرور . . فالجمال مثلاً ، هذا المعنى اللذيذ الذي يبعث في النفس الخدر ، وفي الروح النشوة ، نحسّ به يتنوّع حسب تنوّع الحالات ؛ فله أسلوبه الذي يتمثل فيه في فصول السنة ، بين وداعة ناعمة ، وثورة جامحة ، وبين نسيم عذب يبعث النعاس في الجفون ، وعواصف ثائرة ترعب الحياة في القلوب ، وله أسلوبه الذي يتمثّل ويختلف في الرجل والمرأة . . وهكذا في سائر مجالات الحياة .

* * *

وإذا كانت للأسلوب هذه الصلة الوثيقة بالحياة ، باعتباره يمثّل الإطار لوجودها ، فمن الطبيعي أن يؤثّر على الصورة العامة لها ؛ فقد يجني على الفكرة فيعطيها لوناً قاتماً بشعاً ، وقد يرتفع بها فيكسبها نصاعة وإشراقاً ، بطبيعة صلة الإطار بالصورة .

والدعوة إلى الله . . إحدى الحقائق والقضايا التي تعيش في حياتنا ، فتشغل تفكيرنا ، وتهزّ وجداناتنا ، من أجل أن تأخذ مركزها الطبيعي اللائق في واقعنا الذي نعيشه ، وفي أزمة الصراع العقائدي الذي نعانيه . فلا بد لهذه الدعوة من أسلوب تتمثّل فيه ليعبر عنها ويميزها ويبلور شخصيتها إلى جانب الدعوات الأخرى التي تملك شخصية معيّنة في مجالات الصراع .

وذلك هو الذي يفرض حاجاتنا الملحّة إلى البحث عن أسلوب الدعوة . . عن الخط العام لهذا الأسلوب . . عن النماذج التطبيقية التي تتمثل فيها روحه ، وتتجلى معها أصالته ومرونته .

أما لماذا كان القرآن الكريم هو المصدر الذي نحاول أن نتلمس أسلوب الدعوة في حناياه وفي آياته وتعاليمه، فلأننا هنا في محاولة الرجوع إلى المصادر الصافية التي لم يعلق بها التغيير والتحريف، ولا نجد أصفى من القرآن مصدراً نتلمّس فيه حقيقة الإسلام وخطوطه العامة من البداية إلى النهاية، هذا بالإضافة إلى ما سيأتي بيانه وهو أن القرآن يعتبر كتاب الدعوة الشامل الذي نجد فيه كل آفاقها ومساربها وأهدافها العامة.

* * *

وجهة البحث

بقي علينا أن نتعرف على الحوافز والدوافع التي تدفعنا إلى البحث عن هذا الأسلوب وخصائصه ومميزاته.

فهل هو مجرد بحث نظري، يتلمس الخطوات العملية التي رسمتها الدعوة لنفسها، لمجرد المعرفة النظرية، تماماً كما نبحث عن الأساليب التي يحاول أفلاطون أن يسير عليها في تنفيذ فكرة (جمهوريته). أو أنه بحث يستهدف العمل من وراء المعرفة، ليحفظ خطوات الدعاة من أن تزلّ، وأساليبَهم من أن تنحرف عن الخط العام الذي وضعه لهم الإسلام، وبالآخرة ليلتقي طهر الوسيلة مع نقاء الغاية، ولتنسجم طبيعة الأساليب مع روحية الأهداف.

من الواضح أننا لسنا بصدد معرفة نظرية للتثقيف والمعرفة المجردة، لأننا لا ندرس نظرية بائدة لا تعيش إلا في بطون التاريخ وفي أذهان المؤرخين؛ بل ندرس نظرية تعيش في واقعنا وتؤثّر فيه وتتأثر به، لأنها تمثل الدِّين الذي يؤمن به الناس الذين يعيشون في هذا الواقع.

وعلى ضوء هذا فلا بد من أن تكون هذه الدراسة من أجل الواقع العملي كطريقة ناجحة ـ في إطارها ـ لفهم هذا الواقع، للانطلاق نحوه من أجل تغييره والعودة به إلى مصادره الأولى النقية الصافية، حيث الطهر والروعة والجلال، حيث الإسلام في صفائه ونقائه بعيداً عن تشويه المشوِّهين وتحريف المحرِّفين.

بين الدعـوة
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قبل أن نتحـدث عن أسلـوب الدعـوة، لابـد لنا من الحديـث عن مضمون كلمـة الدعـوة ـ فيما نـريد. فقد يخيـل للكثيرين أن مفهومهـا يتسع، أو ينطبق، على مفهوم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ولهذا فهم يرون أن علينا أن نرجع إلى ذلك الموضوع في موارده ومصادره، وفي التشريعات الإسلامية التي عرضت لشروطه وأحكامه، لنتعرف منها على طبيعة الأسلوب ووجهته العامة.

ولمّا كنا لا نريـد هذا المفهوم من هذه الكلمـة، ولمّا كان للأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر بعض الحدود والقيود التي قـد لا تلتقي بها الدعوة في طريقهـا الطويل. . كان لا بـدّ، من بـاب الإخـلاص لحديثنـا، من أن نتعـرف على طبيعـة الفـارق بين هـذين المفهومين، وتحديد مضمون هاتين الكلمتين.

نحن لا ننكر أن لفظ الدعوة ـ بمفهومه اللغـوي ـ يتسع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . فإن الأمـر بالمعروف يمثّل الـدعوة إلى فعل الخير والسير في طريقـه، أما النهي عن المنكـر فيمثّل الدعـوة إلى الابتعاد عن الشر والانحـراف عنه، ففي كل منهما دعـوة للعمل الصالح إيجاباً وسلباً.

نحن لا ننكـر ذلك، ولكن الإصطـلاح العام لهذه الكلمـة ضـاق عنها، فلم يعـد يتسع لها، ولا سيما كلمة «الدعوة إلى الله». . فقد يبدو لنا أنها لا تصلح لاستيعاب هذا المضمون. . لأنها تمثل الخطوة الأولى التي ينقلها الإنسان في هـذا الطريق، لتكون فاصلاً بين طريق وطريق، وفارقاً بين منهج ومنهج، وحداً بين حياة وحياة.

أمـا الأمر بـالمعـروف والنهي عن المنكر فيمثّـل الدعـوة إلى متـابعة الخطى التي بـدأ الإنسان بها الطريق، وعدم الانحراف عن سواء السبيل . . ولا بد لمثل هذا من أن تكون البداية قد تحققت والطريق قد تحدد ووضحت معالمه .

وهنا يبدو لنـا التحديد ممكناً، والفارق واضحاً . . فنستطيع أن نقـول عن «الدعوة» إنها تمثّل «الحركة التي يقوم بها الـدعاة المسلمون خارج نطاق الحيـاة الإسلامية من أجل إدخال الآخـرين إلى الإسلام»؛ أما الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر فهو «العمل على تطبيق الإسلام من قبل المسلمين داخل الحيـاة الإسلامية، وحمل المسلمين على السير في طريق الإسلام من غير التواء وانحراف» .

ولهذا كان الآمـرون بالمعروف والنـاهون عن المنكـر يعيشون داخل الحياة الإسـلامية ليلمسوا مواطـن الضعف ومواطن القوة، في هذه الحيـاة، ويلاحظوا مظاهـر الإستقامة وبوادر الإنحراف . . فمهمّتهم هي مهمّة حرّاس الشريعة، وحماة القانون . . أمّا الدعاة إلى الله فيعيشـون على مشـارف القـلاع، ووراء الحدود، ليلتقطـوا التـائهين والضـالّين والحائرين ليأخذوا بأيديهم إلى حظيرة الإيمان حيث الأمن والطمأنينة والسلام .

* * *

مع الدعوة في القرآن

بدأ القرآن الكريم كتاب دعوة، وختم كتاب تشريع وتوجيه .

فقد أنزله الله تعالى ـ أول ما أنزله ـ كتاب دعوة، يدعو إلى الله وإلى رسوله وإلى الدين الحق الذي أراده الله للإنسان، طريق هداية، وسبيل نجاة . ومن الطبيعي ـ لذلك ـ أن يعيش القرآن واقع الـدعوة وظروفها ومـلابساتها، فيحلل دوافعها وأهدافهـا، ويعرض أسـاليبها ووسـائلهـا، ويحاكم الشبهـات والإفتراءات التي وُجِّهت إليهـا، بالأسلـوب الهادىء تارة، والثائر أخرى؛ ويحاول ـ في الوقت نفسه ـ أن يبني نفس الداعية، ويقوي روحه المعنوية، ويوجه خطواته إلى الطريق السوي الذي لا يميل ولا ينحرف .

ولهذا فإن الباحث الواعي يستطيع أن يجد في القرآن الكريم خطوات الدعوة وأساليبها، وردود الفعل التي حدثت من جرّاء انطلاقها في المجتمع العربي آنذاك، ويتعرف على طريقة أفراد ذلك المجتمع وأسلوبهم في التفكير، ويتبين ملامح الصراع وأساليبه التي كانوا يستخدمونها تجاه الدعوة، ويستعرض طبيعة التدرّج أو التطوّر، البطيء تارة، والسريع أخرى، الذي كانت الدعوة تسير فيه حسب اختلاف الظروف والأحوال.

وهكذا يمكن للباحث أن يخرج بحصيلة كبيرة في تاريخ الدعوة وأوضاعها وظروفها. ولكن من المؤسف أن هذا الجانب لم يقدّر له البحث الموضوعي الجادّ الشامل، بل ترك لصدف البحث ومجالات التفسير الخاطفة. ولو قُدِّر لنا أن نبلغه لاستطعنا أن نتفادى كثيراً من الهفوات التاريخية التي تؤرّخ للدعوة، والمشاكل الكثيرة التي نشأت منها، الأمر الذي يجعل الإنسان يقف في حيرة التيه إزاء ما فيها من ملابسات ومنعطفات وأخطاء.

* * *

دعوة.. ودولة

جاء الإسلام لينشر دعوة، ويبني دولة.

فقد انطلق في هذه الحياة لينشر دعوة الله في الأرض ويبشّر بها، ويبني على أساسها دولة تكفل للحياة التنظيم والتوجيه، وتحمي الإنسان من شرور نفسه وشرور أبناء جنسه.. ولهذا لم تكن طبيعة الدولة في الإسلام منفصلة عن روح الدعوة ومجراها، بل هي منسجمة معها، تماماً، كما يلتقي كما مجرى النهر بمصبّه.

ولكن هناك قضية تتعلق بطبيعة الدعوة، وطبيعة الدولة. فإن طبيعة الدعوة ـ من حيث هي رسالة روحية وفكرية ـ تتطلب إفساح المجال أمام الفكر ليفكر، وفتح الطريق أمامه ليقتنع، وخلق الأجواء الملائمة للروح لتنطلق وتحّس وتؤمن.

فمهمّة الداعية إذاً ـ في مجال الدعوة ـ هي إعانة الإنسان على أن يصل إلى الإيمان بفكره وروحه؛ ولا بد له في سبيل ذلك من استخدام الوسائل التي تتلاءم وهذه المهمة، لتصل به إلى ذلك الهدف.

أما طبيعة الدولة ـ من حيث هي كيان معنوي ومادي ينظم حياة المجموع، ويحمي أمنها وسلامها ـ فتتطلب تهيئة القوى التي تدعم هذا الكيان وتركّزه، والعمل على بقاء هذه القوة صامدة أمام التيارات التي تندفع نحوها، والقوى الظالمة التي تتحفّز للإجهاز عليها؛ فمهمّة مؤسس الدولة هي تجميع القوى التي تهيىء لهذا الكيان سلامته، وتنظيمها في وحدة قوية ثابتة؛ ولا بدّ له في الوصول إلى ذلك من اتباع الأساليب التي تصل به إلى تلك الغاية.

والإسلام ـ بحكم اختلاف طبيعة المضمون في كل منهما ـ حاول أن يعطي لكل منهما مجاله، ويشرع له الأساليب التي تتفق وطبيعته. . وبذلك نستطيع أن نفسّر الآيات التي تأمر بالرفق وتدعو له، وتطلب المغفرة حتى للذين لا يرجون أيام الله، والآيات التي تدعو للقتال والشدة والغلبة مع الكفار. . إنه الفرق بين أحكام الدعوة وبين أحكام الدولة، الذي يرجع إلى اختلاف طبيعتهما مع نبل الغاية وسلامة الهدف ووحدة المصدر الذي يرتكز على الخط العام الذي جرى عليه الإسلام في تشريعه، من رعاية الصالح العام للإنسان، ودفع المفاسد والأضرار عنه.

وبذلك نتمكن من أن نضع أيدينا على الخط الفاصل بين أساليب الدولة وبين أساليب الدعوة، ونبتعد عن الالتباس والخلط بينهما، الأمر الذي قد يسبب لنا ارتباكاً في الفكر وخللاً في البحث.

* * *

طبيعة الدعوة الإسلامية

لا بد لكل دعوة من الدعوات من خط تسير عليه، وهدف تستهدفه، وطبيعة تتميز بها.

فمن الدعوات، ما لا يهدف إلى أن تكون الدعوة ديناً يدان به، وفكراً يتجه إليه العقل، وإيماناً تحتضنه الروح ويسكن إليه الضمير. بل كل هدفه أن تكون دعوته عملاً يمارسه الآخرون، ونظاماً يخضعون لقوانينه وشرائعه؛ فالمشكلة عند صاحب هذه الدعوة هي في الطريقة التي توصله إلى مرحلة التنفيذ، وإذاً فلا مانع لديه من أن تعيش في حياة الناس دون أن يكون لهم في ذلك إرادة أو اختيار. ولا بد لمثل هذا من أن يسلك أي طريق يتيح له فرصة التنفيذ، ويهيىء له سبل العمل.

ومن الدعوات ما يهدف إلى أن يجعل من دعوته قاعدة روحية وفكرية، قبل أن تكون قاعدة قانونية. فهي عنده رسالة قبل أن تكون قانوناً، ودين قبل أن تكون مجرد فكرة، وهي ـ إلى جانب ذلك ـ منهج فكر يُتّبع ويُحتذى، وينبوع روح يسكن إليه العقل وترتاح لديه الروح.

أما مرحلة التنفيذ، وهي المرحلة التي تجعل للدعوة إطار الدولة، فتنطلق من وعي الدعوة لواقعها ومرحلتها في خطة عملية مدروسة تعالج المشاكل برفق، وتدفع العدوان بقوة.

والمشكلة التي تعيش في ذهن صاحب هذه الدعوة هي في الطريقة التي يستطيع بها أن يكسب أكبر عدد ممكن، في كميته وكيفيته، إلى فكر الدعوة وإيمانها ومبادئها؛ وإذاً

فلا بـد له من أن يفتش عن الطـريق التي تتيح لـه هذا الكسب . . ولن يقـدّر للقوة أو العنف أن تكـون إحـــدى هـذه الطـرق التي يفتش عنهـــا ، لأنها لا تستطيع أن تتجـه بوسـائلها إلى الفكـر أو الروح ــ وهما المجالان اللذان تـريد الـدعوة أن تحتلهـا في حياة الإنسان ، وإنما تتّجـه تلك الوسائل إلى الجسد ــ وهو أحد المجالات التطبيقيـة لمبادىء الدعـوة ، وهو ليس مجالاً للدعوة على أي حـال ؛ فلم يبقَ إلا الوسائل التي يرتـاح إليها الفكر وتسكن لديها الروح ، فتهيّىء للفكر مجالاً البحث والنظر والتأمل ، وللروح سبيل الإيمان والعقيدة .

هـذان نموذجـان من النماذج التي تتمثّل فيهـا الدعـوات . فما هي طبيعـة دعوتنـا الإسلامية منهما ، وأين تقف بين هذين النموذجين؟

يبدو لنا أنها لا بد من أن تقف مع الصنف الثاني للدعوات . فقد ألمحنا ـ في حديث سابق ـ إلى أن الإسلام لم يأتِ ليبني دولة لتكون غاية بذاتها ، وإنما جاء لينشر الدعوة إلى الله ، ويبني على أساسها الدولة . فليست الدولة ـ لديه ـ هدفاً يراد بلوغه على أي حال ، بل هو وسيلـة لتركيز مفاهيم الـدعوة وتجسيدهـا في حياة الناس . . وإذاً فـلا بد من أن تكون الدعـوة سابقة لهذه المرحلة ، لتكون مفاهيمهـا أساساً للدولة التي يُـراد بناؤها في الحياة .

أمّـا كيف نستطيع إدراك هذه النتيجـة حول طبيعـة الدعـوة الإسلاميـة فيظهر لنـا بـوضوح إذا درسنـا واقع الإسـلام وطبيعته . فليـس الإسلام مجرد قـانـون جاف كبقيـة القوانين التي روعيت فيها فكرة معينة ، في بـداية تشريعها ، ولكنها سرعان ما انفصلت عن الفكرة ، ولم يعد يربطهـا بها إلا ما يربط الشيء بمصدره ، ولا شيء غير ذلك ، ولهذا فإن مهمّة الناس تنتهي عند القيام بتنفيذها حرفياً دون تغيير وتبديل .

ليس الإسلام كـذلك ، بل هو دين روعي فيـه ما يـراعى في الدِّين من روحيّـة تربط النظام بالعقيدة ، والدعوة بالتشريع ؛ فهو ليس نظاماً مجرداً ، وليس عقيدة مجردة ، وإنما هو عقيدة ونظام ، يلتقيان في بداية الطريق ولا ينفصلان بعد ذلك أبداً .

والمسلم ـ على ضوء هذا ـ لا يستطيع أن ينفّذ قانون الإسلام في حياته إلا إذا التقى في مرحلة التنفيذ بأساس العقيدة ومصدر التشريع، فيتّجه إلى الله بقلبه وهو يعمل، وبفكره وهو يفكر، وبروحه وكل كيانه وهو يعبده. . فلا بد له ـ كمسلم واعٍ ـ من الالتقاء بالله أولاً وأخيراً.

أما إذا انفصل عن الله في عمله، فلم يربط أعماله به ولم يصلها بالله فإنه لن يكون مسلماً واعياً، ولن يعود ـ في نهاية المطاف ـ ممتثلاً لأوامر الله ونواهيه التي هي أوامر الإسلام ونواهيه. .

وإذا كان الإسلام دعوة قبل أن يكون دولة، فلا بد لنا من أن نتلمس في أسلوبه، أسلوب الدعوة، فنلاحظ خطوطه العريضة ونماذجه التطبيقية، لنخلص بعد ذلك إلى نتيجة البحث.

* * *

ما الذي نريده من الأسلوب؟

للحديث عن الأسلوب جوانب، عديدة، تختلف طبقاً لتنوّع جوانبه وجهاته، فيلتقي بالجانب الفني والجانب الجمالي اللذين يخضعان لتقييم دقيق للمقاييس الفنية والجمالية في طريقة عرض الفكرة، وفي أدوات التعبير، ويلتقي معه بالجانب المنهجي الذي يترسم الطرق المنهجية التي تنبع في طرائق البحث والدراسة، وهناك الجوانب العامة للأسلوب التي تلتقي به تبعاً لالتقاءها بالمضمون من حيث هو علمي أو أدبي، حتى الأخلاق. . هذه القيمة التي تجعل لحياتنا معنى ولوجودنا قيمة، تلتقي بالأسلوب وتقسمه إلى أسلوب أخلاقي وأسلوب لا أخلاقي. فالأسلوب كائن حياتيّ، يخضع لكل ما يخضع له الكائن من قيم وموازين، ويتصف بكل ما يتصف به الكائن من صفات وألوان.

أمّا أين يجد الباحث ما يعينه على استخراج هذا المثال من القرآن، فنحسب أنه لن يبتعد عن الأبحاث التي عرضت لإعجاز القرآن، وحاولت تقييم المدى الذي وصل إليه

القرآن الكريم في ملاحظة كل جانب من الجوانب المتصلة بالقضية مع إيجاز في العرض، وإشراق في التعبير.

ولسنا بصدد البحث عن الجوانب المنهجية والعلمية والأدبية للأسلوب، لأننا لا نفقه للمنهجية معنى فيما يتصل بأسلوب الدعوة، لأنها إنما تتصل بموضوع الدراسات والأبحاث.

أما الجانب العلمي أو الأدبي فقد يمكن لأسلوب الدعوة أن يتصف بهما إذا لاحظنا نوعية الطريق الذي تسلكه الدعوة في النفاذ إلى عقليات الآخرين، ومدى التقائه بالطريقة العلمية في مقام البحث والتعرف على الرأي الصحيح، وإذا التفتنا بعد ذلك إلى أن الدعوة قد تكون بحاجة إلى مراعاة الأساليب الأدبية المتعارفة في أسلوبها، لتكون منسجمة مع واقعها الذي تعيش فيه. ولكننا لا نريد التحدث عن هذا الجانب أو ذاك كأساس للبحث، ولكن قد نعرض له فيما نعرض من بحث، وفيما نريد من حديث..

أما الجانب الأخلاقي فهو أحد الجوانب التي نريد التحدث عنها، لأننا بحاجة إليه بسبب ما نعانيه من أزمة الأخلاق في أساليبنا، ولا نزال نعيش آثار هذه الأزمة ونتائجها في حياتنا بوعي وقلق، فإن كثيراً من الإنتكاسات والإنحرافات والأخطاء التي رافقت سير الدعوة إلى الله.. كانت نتيجة طبيعية لفقدان الأخلاق في أسلوب العمل، وفي أسلوب الدعوة الذي يمارسه بعض الدعاة؛ ولهذا كنا نحس بالحاجة الملحة إلى الحديث عن هذا الجانب للأسلوب، من أجل التعرف على خطوطه وملامحه العامة..

وسنحاول الحديث عن الجانب العملي للأسلوب بوجه عام، من حيث ملاحظته للواقع في ظروفه ودقائقه. كل ذلك في حدود النواحي العامة التي عالجها القرآن.

ولا بد لنا ـ ونحن في ختام هذا الحديث ـ أن نشير إلى أننا لا نريد من البحث عن أسلوب الدعوة أن نتعرّف على الأساليب التي واجه بها القرآن الناس في الدعوة، ليكون البحث سائراً في مجال الآيات التي خاطب بها الكفار وغيرهم، وإنما نحن بسبيل تعرف المنهج الذي يرسمه القرآن للداعية في مجال الدعوة؛ فنحن هنا في البحث عن المنهج، لا في مجال البحث عن خصوصيات الأسلوب الواردة في القرآن.

أسلوب الإسلام
في علاج العلاقات البشرية

لا بد لنا ـ ونحن في الطريق إلى التعرف على أسلوب الدعوة في القرآن ـ من أن نتفهم المبدأ العام الذي شرّعه الإسلام لتنظيم علاقات الإنسان مع أبناء جنسه؛ وبتعبير آخر، الخط العريض للأسلوب الإسلامي في العلاقات الإنسانية في المجال الإجتماعي العام لأن الدعوة تمثّل إحدى هذه العلاقات التي ترتبط بالآخرين، فلا بد لها من أن تكون منسجمة في أسلوبها مع الخط العريض للأسلوب الإسلامي العام.

* * *

لو أردنا أن نلخص أسلوب الإسلام وطريقته في تنظيم علاقات الإنسان بالآخرين، وفي معالجة روابطه الإجتماعية، لما وجدنا خيراً من كلمتي «التسامح» و «العدل» تعبيراً عن المبدأ الشامل الذي يستوعب دقائق التشريع ـ في هذا المجال ـ وتفاصيله.

فنجد مبدأ «التسامح» في القرآن الكريم يتمثّل في الآيات الكريمة المتفرقة التي تدعو إلى «العفو» و «الصفح» و «الإحسان» و «دفع السيئة بالحسنة» و «الإعراض عن الجاهلين»، وغير ذلك من المعاني التي تلتقي بالتسامح وتنطلق منه.

فنحن نقرأ الآيات الكريمة التالية:

﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾[1].

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٩٦.

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم* وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾[1].

﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[2].

﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾[3].

﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[4].

﴿فاعفُ عنهم واستغفر لهم﴾[5].

﴿ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحبُ المحسنين﴾[6].

﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾[7].

﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[8].

﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾[9].

﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾[10].

---

(١) سورة فصّلت، الآية ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٣.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٠٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٦) سورة المائدة، الآية ١٣.
(٧) سورة الشورى، الآية ٣٧.
(٨) سورة الشورى، الآية ٤٠.
(٩) سورة الجاثية، الآية ١٤.
(١٠) سورة القصص، الآية ٧٧.

﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[1].

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[2].

* * *

أما العدل فنلمحه ينطلق في القرآن الكريم ليدخل كل مجال من مجالات الحياة، عامة وخاصة، انطلاقاً من الفرد مع نفسه وخالقه وأسرته وأمته ومع الناس جميعاً ومع الكون في كل ما يتمثّل فيه من مخلوقات . .

فنقرأ الآيات التالية :

﴿إن الله يأمر بالعدل﴾[3]

﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾[4]

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[5]

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[6]

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[7].

﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾[8].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥ .
(٢ ـ ٣) سورة النحل، الآية ٩٠ .
(٤) سورة الشورى، الآية ١٥ .
(٥) سورة النساء، الآية ٥٨ .
(٦) سورة النساء، الآية ١٣٥ .
(٧) سورة المائدة، الآية ٨ .
(٨) سورة الأنعام، الآية ١٥٢ .

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾[1].

فنستطيع أن نلمح العدل في الآيات الكريمة التي عرضت لرد الإعتداء بمثله دون عدوان، وجزاء بمثلها دون طغيان. . باعتبارهما تجسيداً لمفهوم العدل، وتطبيقاً حياً لمبدأه، فنقرأه في الآيات الكريمة التالية:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2].

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[3].

﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾[4].

* * *

ولا بد لنا ـ حرصاً على سلامة البحث وعلاقته بموضوعنا الذي نحن بصدده ـ من الوقوف قليلاً أمام كل من هذين المبدأين «التسامح» و «العدل»، فنتعرّف على ملامحهما، ونتبين ـ في ضوء ذلك ـ خطوطهما وأبعادهما العامة في حياة الإنسان.

فمبدأ «التسامح» يمثّل «الأسلوب المسالم الوديع الذي يواجه به الإنسان اعتداء الآخرين عليه واساءتهم إلى حقوقه»، فهو يهدف إلى أن يجعل من الإنسان المعتدي عليه إنساناً مثالياً تنبع الرحمة من قلبه لتنطلق في حياة الآخرين محبة وسلاماً، ويتدفق الخير من روحه ليفيض على مجتمعه نعمى وهناء. .

ولكن. . ليست هذه الرحمة التي تنبع من قلبه، وهذا الخير الذي يتدفق من روحه، سذاجة روحية أو نفسية تفرض عليه هذا السلوك، أو غفلة عن واقع الإنسان وجهلاً بنوازعه وميوله، وليس ذلك أنهياراً في تقييم الكرامة والعزة الشخصية لديه. ليس هذا السلوك، الذي يدعو الإسلام إلى اتباعه بمنطلق من هذا أو ذاك، بل لا يمكن أن يكون

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٦.

(٤) سورة الشورى، الآية ٤٠.

كـذلك، لأنه يختلف اختـلافاً جـذرياً عن القـواعد الأسـاسية للتشريع الإسـلامي في محاولته لبناء الشخصية الإسلامية.

فما هو منطلق هذا التشريع إذاً؟

أمامنـا جوابـان لهذا التساؤل.. فقـد يمكن لهذا التشريع أن يكون مجرد محاولـة من نـاحيـة الإسلام لتفـادي التنـازع والتخـاصم بين أفـراد الإنسان، وإبعـاد روح الحقـد والبغضـاء والعداوة عن نفـوسهم لتحلّ محلّهـا روح المحبة والتـآلف والتعاطف.. قـد يكـون هـذا التشريع منطلقـاً من هـذا الهدف، فتكـون «المصلحـة» ـــ حسب تعبير الأصوليين ـ كـامنة في طبيعة التسامح من حيـث هو وسيلة لسلامة المجتمـع وسلامه، وليس على الإنسان ـــ انطلاقاً من سمو الهدف وأهميـة الغاية ـ إلا أن يسير على هـديه، مهما كانت الظروف والأحوال. وليس مـن حقه أن يتساءل عن تفسير آخر لهذا التشريع أو حيثية أخرى لهذا الحكم، لأن التفسر الأول والأخير له هو إبعاد شبح النزاع والخصام عن واقع المجتمع وحياته.

وهذا هو الجواب الأول للتساؤل..

وربما يكون لهذا التشريع جذور بعيدة في واقع الإنسان، في طبيعة تكوينه وخلقته، في ظـروف حياتـه وتطـورها واختـلافهـا في الأسلوب والهدف.. فمن الممكن جـداً أن يلاحظ الإسلام فيه هذه الجوانب، فيحـاول أن يوفق بينها وبين التشريع الذي يشرعه، والمبدأ الذي يرسمه.

فقد خلق الإنسان، وخلقت معه غرائزه وميوله؛ وبدأ الحياة، وبدأت معها شهواته ورغباتـه. فالإنسان حيوان ـــ قبل كل شيء ـ يملك كل ما يملكـه الحيـوان من وحشية الغريزة، وبهيمـة الرغبة، ولكن حيوانيتـه تختلف عن حيوانية سائر أفـراد الحيوان، فإنه يـرافق العقل الـذي يخفف من غلـوائهـا، فيكبح جماح الغريـزة، ويطـامن من سعـار الرغبة.

ومن الطبيعي لهذا المخلوق الذي يملك عناصر الصراع في داخل ذاته، ويعيش قوة

الإيجاب والسلب في نفسه . . من الطبيعي له أن يعيش حياته صراعاً بين الخير الذي يدعو له العقل وبين الشر الذي تدفع إليه الغريزة، ومن المفروض لهذا الصراع أن يعاني الهزيمة في معركة والإنتصار في معركة أخرى .

تلك حقيقة نحسب أنها لا تحتاج إلى إثبات في واقع الإنسان وطبيعته، ولا مانع من أن يكون الإسلام قد لاحظها بدقّة، ولاحظ ـ إلى جانب ذلك ـ أن هذا قد يضطره إلى الإصطدام بالآخرين، وإلى الإساءة إليهم، نتيجة اندفاع بعض الغرائز المودعة فيه، وأدرك ـ في الوقت نفسه ـ أن الإنسان قد يتراجع عن موقفه، ويدرك وجه الخطأ فيه، فيحاول البحث عمّن يأخذ بيده، ويعينه على تصحيح موقفه، دون أن يكون في هذا التراجع ما يسيء إلى كرامته ويضعف من عزّته .

وعلى ضوء ذلك يكون هذا التشريع لمبدأ «التسامح» في حياة الإنسان، منسجماً تماماً مع الفهم العميق والإدراك الواعي لواقع الإنسان، ومنطلقاً من هذا الواقع، ليفسح له مجال التراجع، ويعينه على ذلك دون أن يؤثر على روح العزّة والكرامة لديه، لأنه ينطلق من الجانب المعتدى عليه الذي يفرض موقفه عليه أن يكون واقعه بمثابة رد فعل للاعتداء .

وهكذا نستطيع أن نفهم في مبدأ «التسامح» وجهاً جديداً من وجوه التشريع الإسلامي، ينطلق من لحظات الضعف البشري، ليتحول بها إلى جانب القوة والعزة والكرامة والحياة الإيجابية السليمة .

* * *

أما «العدل»، وهو المبدأ الثاني الذي اعتمده الأسلوب الإسلامي في العلاقات الإجتماعية ـ فيما نرى ـ، فنجد أنه يمثّل «الأسلوب الإيجابي الصارم الذي يعالج به الإنسان مشاكل حياته في نطاق اتصالها بالآخرين» . فهو يهدف إلى أن يطامن من جموح غريزة العدوان في نفس الإنسان، ويخفّف من طغيان الإثرة والأنانية والحقد البغضاء وغيرها من النوازع الشريرة، وذلك بوضع الحدود المادية التي توقفه عند حدّ معيّن لا يتجاوزه ولا يتعداه .

وبذلك فقد وضع الإسلام قاعدة أساسية ثابتة للعلاقات الإجتماعية المختلفة، لا تنحرف عن الطريق، ولا تزيغ عن الحق، ولا تتأثّر بالقرب والبعد، ولا تضاءل للقوة، ولا ترتفع على الضعف، بل تزن القضايا بميزانها السويّ العادل الذي لا يختلف ولا يتبدّل مهما اختلفت الظروف والأحوال. . وبذلك أمكن للبشرية أن تطمئن إلى مستقبلها، وأن تستريح إلى نظامها المتوازن المتكامل، دون أن تخشى عليه انهياراً أو تخاف معه انحرافاً.

ولكن الشريعة السمحة لم تشأ لهذا التشريع أن يكون جافّاً قاسياً، بل حاولت أن تلطّف من حدّته وتخفف من قسوته، فلاحظت فيه جانب المرونة التي تحفظ للحق قدسيته وللحقيقة هيبتها، فانطلقت تفسح المجال أمام العفو، وتشجع على الصفح والمغفرة، حتى ليكاد القارىء يشعر ـ وهو يقرأ القرآن الكريم ويتلو الآيات المتعلقة بالعدل ـ أن جانب العفو أقرب إلى الله من جانب القصاص ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى**﴾[1]؛ ولعلك لا تجد آية تعرض للعدل في مورد القصاص إلا وتجد معها الأمر بالصبر والعفو والصفح والمغفرة، ممّا قد يوحي أو يومىء للقارىء أن العدل ـ في هذا الجانب ـ قد اعتبر وسيلة لإقامة النظام وحفظ الحقوق، حيث لا وسيلة غيرها، ولا طريق سواها، وإلا فعلى الإنسان أن يحاول تفادي هذه الوسيلة ـ وإن كانت حقاً له ـ مهما أمكنه ذلك.

* * *

وهكذا استقام للتشريع الإسلامي أن يحقق التوازن فيما يرسم من شريعة، وفيما يشرّع من حكم. فقد وازن في أسلوبه العملي للعلاقات الاجتماعية بين جانب الضعف البشري وبين جانب التمرد الغريزي، فحاول أن يحطّم كبرياء الغريزة بالقضاء على طبيعة التمرد، فشرّع مبدأ «العدل» الذي يفسح للإنسان مجال حماية حقوقه وصيانة كرامته من أن تعبث بها نزوة متمرّدة أو تذهب بها شهوة منحرفة، ويعطي الحياة قوة كبيرة رادعة تحفظ بهانفسها وتدافع بها عن نظامها. . كل ذلك في غير طغيان أو إسراف.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

وحاول بعد ذلك أن يعطف على جانب الضعف البشري، فشرّع التسامح كأساس عام لعلاقات الإنسان بأخيه الإنسان، كما راعى في العدل جانب الصفح والمغفرة.

ولا بد لنا من أن نلاحظ أن حقّ المعتدىٰ عليه مصون ومحفوظ في حالة اقتصاصه من المعتدي وأخذه بالعدل، وفي حالة عفوه عنه ومغفرته له؛ أمّا في حالة القصاص فلأن ذلك يتيح له استيفاء حقّه استيفاء مادياً، وأمّا في حالة العفو والمغفرة فلأن ذلك يفسح له المجال لإشباع جانب الخير والرحمة والكرامة في داخل ذاته، لأن هذه الخطوة تشعره باحترام ذاته وسموّ روحه.

وهناك ناحية ثانية يشعر بها صاحب حق العدل وهي أن منحه هذا الحق يشعره بقيمة عفوه حين يعفو، لأنه يكون عفواً عن قدرة على العكس من الحالة التي لا يجد فيها مجالاً لأخذ حقه واسترداده، فإنه يكون عفواً عن عجز، وهو عفو لا يرضي طبيعة الكرامة في نفس الإنسان.

* * *

وخلاصة القول: إننا نستطيع أن نفهم ـ على ضوء ما قدمناه ـ طبيعة الأسلوب الإسلامي في الحياة في كل من مبدأي «التسامح» و «العدل»، فإنهما يرجعان إلى مصدر واحد، وينطلقان من واقع واحد، هو ملاحظة واقع الضعف البشري الذي قد يتراجع عن خطأه فيفتقر إلى اليد التي تأخذ بيده، وتعينه على تصحيح موقفه دون امتهان لكرامته أو اساءة لعزة نفسه.. فكان التسامح، الذي يمثّل «الأسلوب المسالم الوديع»، هو تلك اليد التي ينشدها.

أما حين يتمرد هذا الضعف وينحرف، ويهدد النظام بالفوضى، والحياة بالدما.. أما حين تستبد به حيوانيته، وتستثيره وحشيته، فإنه يفتقر إلى السوط الذي يحطّم غروره، وإلى القوة التي تكبح جماحه، وتخفف من غلوائه، وتطامن من كبريائه، وتضع أمامه الحدود والسدود لئلا يبقى سادراً في غيّه، منطلقاً مع هواه، كسبيل من سبل حماية الحياة من شذوذه، وحمايته من الاندفاع في تحطيم

نفسه، وتحطيم الحياة معه . . فكان «العدل» هو هذه القوة التي توقفه عند حده، وترجعه إلى عقله كما يقول العامة .

* * *

وهكذا نصل إلى ختام الحديث حول طبيعة الأسلوب الإسلامي العام في مجال العلاقات الاجتماعية، لنخرج بنتيجة واحدة، وهي أنه بإمكاننا استثارة جانب الخير في الإنسان والعمل على تقوية هذا الجانب إلى أبعد حد . . ولكن علينا أن نحسن استثارته واستثماره، ولا بد لنا ـ في الوقت نفسه ـ من أن نكون حذرين واعين، حرصاً على أن لا يثور جانب الشر فيطغى على سلامة الحياة وأمنها . فقد يعيش الإنسان في حياته لحظات لا تبقي مجالاً ليقظة جانب الخير فيه، ولا بد لنا ـ في هذه الحالة ـ من القوة . . القوة التي تعالج ولا تعتدي، كطريق عملي للرجوع به إلى طريق الخير وإبعاده عن طريق الشر والضلال والدمار.

* * *

أسلوب الدعوة في القرآن

الخطوط العامة للأسلوب

هناك كثير من الآيات القرآنية التي عرضت للدعوة، إلا أن هناك آية واحدة نستطيع أن نجد فيها الركائز الأساسية لأسلوب الدعوة وطريقتها التي يلزم على الدعاة أن يسيروا عليها، وينتهجوا نهجها وهي قوله تعالى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

لذلك فلا بد لنا من أن نفهمها من جانبها التفسيري لنتعرف منها على الخط العام للأسلوب الإسلامي في الدعوة.

وفي بداية الحديث حول الآية يحسن بنا أن نتلمس بعض مفرداتها في حدود معانيها اللغوية والعرفية، لنتعرف على خصائصها حذراً من أن يبتعد بنا الفكر، وينحرف الطريق، فنخرج بالقرآن عن مقاصده ومداليله إلى مفاهيم ومقاصد بعيدة عنه، بدافع الفكرة المسبقة التي نحملها ونحاول فرضها على القرآن كطريقة لبقة لإعطاء الفكرة صبغة شرعية وصفة مقدسة، أو إعطاء القرآن صفة الإستيعاب والشمول لكل ما كان وما يكون.. وتلك طريقة يبدو لنا أنها تسيء إلى القرآن أكثر مما تحسن إليه، كما أنها في الوقت ذاته تثير في الفكر روح الغرور والزهو والعظمة الفارغة، وتبتعد به عن طريق الحق والرشاد.

ولسنا الآن بصدد معالجة هذه القضية أو نقدها، وإنما نحن في محاولة الإشارة إلى طبيعة المنهج الذي نحاول سلوكه في استنطاق الآية والتعرف على بعض ملامحه وخطوطه.

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

مـع
الآيـة الكـريمـة

نحن الآن مع الآية الكريمة أمام فقرتين :

١ ـ ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[١].

٢ ـ ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[٢].

ولنبدأ بالفقرة الأولى . .

فنلاحظ اشتمالها على كلمتي «الحكمة» و «الموعظة الحسنة» . فما الذي نفهمه منهما؟

* * *

أما كلمة الحكمة فقد أخضعها اللغويون ـ على عادتهم ـ لمعاني متعدة، لو دققت فيها لرأيتها أشبه بالمصاديق منها بالمفاهيم . . وإذا شئنا الوضوح في التعبير فنجد أنها بدلاً من أن تحدّد معنى اللفظ تشير إلى بعض ما يلتقي به وينطبق عليه من الأمور الخارجية وغيرها .

فلنستقرىء كلمات اللغويين فيها ، فماذا سنرى؟

إننا سنرى أمام هذه الكلمة المعاني التالية : «العدل» و «الحلم» و «النبوة»، و «ما يمنع من الجهل»، و «ما يمنع من الفساد» ، و «كل كلام موافق للحق»، و «وضع الشيء في موضعه»، و«صواب الأمر وسداده»، و «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»، وغير ذلك . .

(١ ـ ٢) سورة النحل، الآية ١٢٥ .

هذه هي بعض المعـاني التي ذكرت لهذه الكلمة، فهل بـاستطاعتنا أن نعتبرهـا ـ كما يريدون ـ معاني لها؟.

لا نحسب أن الإيجاب سيكون جـواباً لهذا التساؤل، بل قد يكـون السلب أقرب إلى الواقع في ذلك، دون أن ينتقص من قيمـة اللغويين أو يقدح بهم، لأن مهمّتهم ليست هي تشخيص المعـاني والمفـاهيم الحقيقية للفظ، بل مهمّتهم الأسـاسيـة هي تشخيص موارد الإستعمال فحسب وبيان الصحيح منها من الفاسد.

وإذاً فلا مانع مـن أن يضعوا أمام الكلمة عدة من المعـاني التي لا تصلح لأن تكون مفهوماً لها، بل هي مصاديق للمعنـى، لمجرد أنها استعملت فيها في بعض الموارد لدى العرب.

قلنـا إن السلب قـد يكون أقـرب إلى الـواقع من الإيجاب في جـواب هذا التسـاؤل، فنحن لا نعتبر هـذه المفاهيم التي ذكـرهـا اللغويـون لهذه الكلمـة معاني لها فيما يبـدو لنا، لأننـا لو رجعنـا إلى موارد إطـلاقاتها لم نجـد لهذه المعاني أي صـدى في نفوسنـا وفي أذهاننا عنـد إطلاقها، فلا نستطيع أن نـزعم لأنفسنا عندما نسمع كلمـة «حكمة» أننا نتمثل معهـا «العـدل» أو «الحلم» أو «العلم» أو «النبوة» وغيرهـا. . أو نـدعي أن لفظ «الحكيم» يمثّل لنـا مفهوم «العـادل» أو «الحليم» أو «العالم» أو «النبي» كمفـاهيم لهذا اللفظ.

ولكننـا ـ في الـوقت نفسـه ـ لا نمانع في إطـلاق هـذا اللفظ على هؤلاء، لالتقـائهم بالمعنى الواسع للحكمة، لا لأنهم يتصفون بهذه الصفات كمعنى حقيقي للفظ.

فما هو معنى لفظ الحكمة إذاً؟

الذي يبـدو لنا ـ من ملاحظـة مـوارد استعمالها ـ أن أقرب هذه المفاهيـم إلى المفهوم الـذي نعنيـه من لفظ «الحكمـة» هـو «وضع الشيء في مـوضعـه، أو «صـواب الأمـر وسـداده»، فإن هذا المفهـوم ينطلق إلى الذهن ويحضر لـديه عنـد سماع هذه الكلمـة، ولكننا لن نـدعي أنه هـو نفس المعنى، بل ندعي أو نـزعم أنه أقـرب شيء إليه وألصق

معنى بـه من بين المعـاني التي ذكرت لـه . . ومن هنـا نجـد أن صفة الحكمـة تلتقي في كـلامنا بـ «الخبرة» و «المران» و «التجربـة»، فنعتبر الإنسان المزود بهذه المعـاني إنسانـاً حكيماً، لأن له من تجاربه وخبرته ومرانه ما يساعده على إعطاء الرأي الصائب، ويمنح خطواتـه وأعماله صفـة التركيز وعـدم الإنحراف والإهتـزاز، ويجعلها في محلهـا كما يقول التعبير الشائع، وهو الذي يلتقي بمفهوم «وضع الشيء في موضعه». ويتضح ما قلناه، إذا لاحظنا التعبير المتعارف «عـالج الأمور بحكمة» أو «سار فيـه بحكمة»، فإن المفهوم منه هو الطريقة السديـدة التي تجعل كل شيء في موضعه؛ وبذلك يمكننا التعرف على وجه إطلاق هـذا اللفظ على «الكلام الموافق للحق» باعتبـاره إرجاعاً للأمـر إلى نصابه، ووضعاً للحق في موضعه، أوباعتباره صواباً وسداداً.

على ضوء ذلك يمكننا إطلاق هذه الصفة على العالِـم والعادل والحليم والنبي، لأن هذه المبادىء التي اشتمل عليها، وهي العلم والعدل والحلم والنبوة، تساعده على أن يضع الأشياء في مـواضعها . . في العلم عندمـا يبحث ويفكر، وفي الحلم عندمـا يعفو ويسامح، وفي العدل عنـدما يقضي ويحكم، وفي النبوة عندمـا يدعو ويبلّغ، فهي من مبادىء الحكمـة لا هي نفسها، ذلك لأن الحصـول على ملكة وضع الشيء في مـوضعه ليس أمراً بسيطـاً يتعلمه الإنسان ويمارسـه كما يتعلم أي صنعة أو حرفـة ويمارسها، بل هو أمـر معقد جداً يحتـاج إلى معانـاة للقضايا والحوادث والأفكـار، واطلاع واسع على دقائقها وخصـائصها ومداخلها ومخارجهـا؛ ومن هنا كان قولـه تعالى، في الحديث عن الحكمة، ﴿**ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾[1]. وكانت الحكمة من المنح الإلهية العظيمة التي امتنّ الله بها على عباده وأنبيـائه في حديثه عن داود (ع): ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة**﴾[2]. وعن آل إبـراهيم(ع): ﴿**فقد آتينـا آل إبراهيم الكتـاب والحكمة**﴾[3]. ويلاحظ في الآية الأخيرة مقارنتها بالكتـاب كدلالة على أنها ترقى إلى مستوى الكتاب في السموّ والرفعة كما يلاحظ ذلك في كثير من الآيات المتفرقة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٤.

وخلاصة القول: إن كلمة «الحكمة» تشير ـ فيما تشير إليه ـ إلى مفهوم «وضع الشيء في موضعه» أو «صواب الأمر وسداده»، إلا أن مباديها تختلف، كما أن مجالاتها تتعدد.

* * *

. . ذلك هو ما نفهمه من لفظ الحكمة في اللغة، حين نطلقها في كل مجال. . فما الذي يريده القرآن منها، هنا، حين ينصح أو يأمر بأن تكون الدعوة بالحكمة؟

هل الحكمة هنا محتوى للدعوة ومضمون لها، أو هي أسلوب وطريقة؟

حاول بعض المفسرين ـ فيما يبدو من كلامه ـ أن يجعل الحكمة هنا مضموناً للدعوة ومحتوى لها، لا أسلوباً من أساليبها. فقد ذكر الشيخ الطوسي(ره) في تفسيره «التبيان» أن الحكمة هي «أن يدعوهم إلى أفعالهم الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح والثواب عليها، لأن القبائح يزجر عنها ولا يدعو إليها، والمباح لا يدعو إلى فعله لأنه عبث، وإنما يدعو إلى ما هو واجب أو ندب لأنه يستحق بفعله المدح والثواب[1].

وفي مجمع البيان للشيخ الطبرسي: «الحكمة القرآن. . وسمي القرآن حكمة لأنه يتضمّن الأمر بالحسن والنهي عن القبيح».

وفي الكشاف للزمخشري: «الحكمة: هي المقالة الصحيحة المحكمة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة» ثم يقول: «ويجوز أن يريد القرآن أي ادعهم إلى الكتاب الذي هو حكمة. .» وفي الوجيز «الحكمة هي الحجج الكاشفة عن دينه. .».

* * *

هذا نموذج من التفاسير التي حاولت أن تجعل من الحكمة مضموناً للدعوة، ومتعلّقاً لها. . فهو تارة أمر بالحسن ونهي عن القبيح، وأخرى الإتيان بالآيات القرآنية في مقام الدعوة، وثالثة إقامة الأدلة والبراهين على الحق. . ولكن يبدو لنا أنها لا تنسجم مع طبيعة غرض الآية وهدفها الأخير، فهي ليست في مجال التحدّث عمّا يلزم على النبي(ص) أن يدعو له فيأمر به أو ينهىٰ عنه، لأن ذلك أمر واضح معلوم للنبي(ص)

(١) التبيان في تفسير القرآن ج ٦ ـ ص ٤٣٩ ـ طبع النجف.

باعتبـاره نبياً مـرسلاً من قبل الله سبحانـه برسـالة تتضمن أوامر الله ونـواهيه وتعـاليمه المتعلقة بأمـر معاش الناس ومعادهم، كما أن مـن المعلوم لديه(ص) أن القـرآن يدخل ضمن نطاق الدعوة، بـاعتباره المعجزة البيانية الخالدة للرسالـة الإلهّية العظيمة؛ ولعلّنا نلمح في كلمة «إلى سبيل ربك» ما يرشدنا إلى ذلك. . فإن سبيل الله الذي تجب الدعوة إليه هو الإسلام بكل تعاليمه ومبادئه، و القرآن بما فيه من أحكام وتعاليم.

أمّا التفسير بالحجج والأدلة والبراهين فهو غير وارد أيضاً، لأنه ليس أمراً جديداً على الدعوة وعلى النبي (ص)، لأن أسـاليب القرآن ترتكز على ذلك، كما أن طبيعـة الدعوة تعتمد عليه، لأنها انطلقت مع أدلّتها وبراهينها منذ اللحظات الأولى.

فما الذي يراد بها إذاً؟

الذي يبدو لنـا ـ من خلال ما قـدمناه ـ في مفهوم هـذه الكلمة أنها تعبير عن طبيعة أسلوب الدعوة وضرورة اتصافه بالحكمة وسلـوكه طريقها. . فكأنّ الآية محاولة للإرشاد إلى طريقة الـدعوة العملية في هداية النـاس وإرشادهم وكسب أكبر عد ممكن منهم إلى صف الدين والعقيدة، وللإشارة إلى أن الحقيقة المجردة العارية، والواقع البسيط المجرد لا يمكن إلقاؤهما إلى الناس دون مقدمات، ودون ملاحظة للظروف ودراسة لجو العمل ومجالاته.

وعلى ضوء هذا فالمراد بالحكمة ـ فيما نفهمه منهـا ـ هو السير على الطريقة الواقعية، ونعني بها تلك التي تلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي تعيش فيه، وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والاجتماعية، وتضع كل ذلك في حسابها قبل بداية العمل.

وإذا ربطناه بالدعوة فسنجد أنها محاولة لتنبيه الدعاة إلى الله إلى أن لا يكون الأسلوب المتّبع لديهم في العمل واحداً من حيث النـوع، بل لا بد من أن يختلف حسب اختلاف الواقع الذي تعيشـه الدعوة ويعيش فيه الدين. . فإن من الواضح أن الـدعوة لن تكون عمليـــة إذا حـــاولت أن تســـاوي بين الجاهل والمثقـف في طبيعـــة الفكـــرة التي تلقى، والأسلوب الذي يتّبع. . فإن الأدوات التعبيريـة والفكرية التي يملكها كل منهما

تختلف عما يملكه الآخر، وأيضاً فقد يقتضي بعض المواقف الجو الحماسي والاندفاعي الصرف، بينما يقتضي البعض الآخر لجو الهادىء المتّزن الذي يتيح للفكر أن ينطلق، وللروح أن تطمئن، وللإنسان أن يفكر بهدوء.

وقد يدفعنا الجو ـ في بعض الحالات ـ إلى عرض الفكرة للمخاطب بكامل تفاصيلها، بينما يدفعنا في حالات أخرى إلى الاكتفاء بعرض الخطوط الرئيسية فقط، تاركين للمستقبل تفاصيل وضع النقاط على الحروف.

ذلك هو ما نفهمه من الحكمة هنا، والذي قد يلتقي مع لفظ «المرونة» في كثير من مدلولاتها، لأنها تقتضي عدم انتهاج الداعية أسلوباً واحداً لا يتعداه في مجالات العمل، بل لا بد له من أن يكون مرناً يلاحظ طبيعةَ الجو وطبيعة الموقف وطبيعة الإنسان المخاطب.

قد نجد في تعبير علماء البيان عن البلاغة بأنها «مطابقة مقتضى الحال»، ما يوضح لنا معنى الحكمة ويقرِّبها إلى أذهاننا، لأنه يلتقي بها من أقرب الطرق.

ولا بد لنا ـ في ختام الحديث حول هذه الكلمة ـ من الإشارة إلى أن «المرونة» التي ذكرناها، و«مطابقة مقتضى الحال» وغيرهما، لا يمكن أن تلتقي، في أي وجه من وجوه العمل، بالوسائل التي تتنافى والمبادىء العامة للأسلوب الإسلامي في العمل الذي يرتكز على قواعد أخلاقية متينة. فإن هذا شرط لا بد منه على كل حال.

***

الموعظة الحسنة

ونلتقي بعد ذلك بكلمة «الموعظة الحسنة»، فما هو المراد منها؟

إن بعض المفسرين يقولون: «إن الوعظ الحسن هو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع..». ويقول بعض آخر منهم ـ عن الموعظة الحسنة ـ: «إنها التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم بها».

ولعلنا نجد في تفسير الموعظة الحسنة بما ذكر تعبيراً عنها بما تنطبق عليه، لأن هذا المعنى الذي يذكرونه من جملة مصاديق الموعظة الحسنة، ولكن لا بأس بذلك بعد أن كان المقصود هنا الإشارة إلى المراد القرآني للكلمة لا المفهوم اللغوي المجرّد.. ولذا فلا بأس علينا من الجري على هذا التفسير مع التأكيد على التفسير الأخير الذي يبين بوضوح: أن الموعظة الحسنة هي طريقة في التبليغ، وأسلوب في الدعوة يحبّبها ولا ينفّر عنها، يقرّب إليها ولا يبعّد عنها، ييسّرها ولا يعسّرها. وأخيراً ـ لا آخراً ـ هو الأسلوب الذي يشعر المخاطب أن دورك معه دور الرفيق به والناصح له، الباحث عما ينفعه ويسعده.

إنها ـ كما قال أحد الكتاب المعاصرين ـ «التي تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب..».

ونزيد على ذلك أن اللطف والرفق واللين ـ في مقام الدعوة ـ يُشعر الإنسان بإنسانيته، ويوحي له ـ بطريقة عفوية ـ أنه أمام دعوة تفيض بالحبّ والحنان والحياة النابضة بالروح الإيماني الخيّر.

الجـــدل
بالتـــي هـي أحســن

أمّا الفقـرة الثانية، وهي قولـه تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن. . .﴾[1]، فقد نستطيع اعتبارها بمثابة الإرشاد إلى الطرق التي يواجه بها الداعية المسلم رد الفعل الذي تثيره الدعوة لدى المخاطب.

فقد حسب القـرآن الكريم حساب الكفار واتبـاع العقائد اللاإسلاميـة، وعرف أن الداعية سيصطـدم بهم، نتيجة اصطدامهم به، بسبب اختلاف أفكـارهم مع دعوته، واتجاه الدعـوة الإيجابي ضد معتقـداتهم، لأنها جاءت لتحطيم تلك المعتقـدات، وهدم تلك الأفكـار. . لقد حسب القـرآن حساب ذلك كلـه، وعرف النتيجـة التي سينتهي إليها الـداعية معهم لو ترك وطبيعتـه، فقد يمكن لأسلوبهم أن يثيره، ويثير فيـه طبيعة الثأر لعقيدته، بـالأساليب المألوفة في هذا المجـال؛ وهنا لا تربح الدعـوة إلا مزيداً من المشاكل ومزيداً من عوامل الإثارة العاطفية التي هي في غنى عنها. .

ومن هنا اتّجهت محاولـة القرآن إلى هذه النـاحية، لـدى الداعية، فحـاول أن يروّض نفسه، ويوسع آفاقه، فيخرجه من نطاق ذاته إلى نطاق الحقيقة الواسع، ويبتعد به عن طبيعة الكبريـاء الكاذب الـذي يضرب في داخله عنـدما تهاجم ذاتـه، ليأخـذ بيده إلى طبيعة التسامح ومراعاة ظروف الآخرين، وملاحظة واقعهم النفسي والعقلي.

إنه يحاول أن يلقي في روع الـداعية أن مهاجمة دعـوته من قبل خصومهـا أمر طبيعي جـداً، ينبغي أن تتقبّلـه كما تتقبّل الأمـور الطبيعية التي نعيشهـا في حيـاتنـا، وإنّ من وظيفته ـ كـداعية ـ أن يكسب هؤلاء الخصوم إلى صف الدعـوة، ويقرّبهم إلى عقيدتها،

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

ويربح فكرهم وإيمانهم، لا أن يحطّمهم ويقتلهم ويغلبهم، فليست مهمّة الداعية هي مهمة الإنسان الذي ينشد الغلبة على خصمه، لإشباع غريزة العظمة في ذاته، بل هي مهمة الإنسان الذي يمارس دور إنسانيته، وذلك بإعانة خصمه على التحرّر من رواسبه، والأخذ بيده نحو هذا السبيل، ليصبح صديقاً له ورفيقاً له في رحلة الدعوة إلى الله..

وبهذا كان الجدل بالتي هي أحسن يمثّل الطريقة العملية المثلى للوصول إلى ذلك الهدف وبلوغ تلك الغاية. فإننا نلاحظ أن الطرق الجدلية التي تعتمد على التماس نقاط الضعف عند المخالف، وتوجيه الضربات المتلاحقة إليه ـ بوحي تلك النقاط، وإثارة أعصابه بالأساليب العنيفة المنافية لإحترام ذاته وفكره.. إننا نلاحظ أن هذه الطرق التي يواجهها الطرف المقابل ـ وهو لاهث ـ لا تملك أن تقدم للعقيدة ـ أي عقيدة كانت ـ مؤمناً يعيش الإيمان بروحه وعقله.. وذلك لأن هذه الطرق تهاجم كبرياء الإنسان وكرامته في الصميم؛ فهي توحي إليه بأنه يقف موقف المغلوب في فكرته وعقيدته، وفي موقف المهزوم في ميدان الصراع المهزوم الذي يشعر بأنه لا يستطيع ربح المعركة، ولكنه لا يقتنع بأن الحق في جانب مقابله؛ ومن الطبيعي جداً أن يتغلب كبرياء الإنسان وعناده في كثير من الأحيان، على رغبته في الوصول إلى الحق، وهنا لا يملك الموقف إلاّ أن يقدم لنا مزيداً من المناقشات اللفظية والهامشية التي لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في الموضوع.

ولذلك ـ وبوحي من شعورنا بعقم الطريقة السابقة ـ نجد أنه لا بد لنا من طريقة تشعر المخاطَب أنك وإيّاه رفيقان في رحلة الوصول إلى الحق، أنك تحترم ذاته وتفكيره، ولذا فأنت تعيش معه في مجال الصراع الفكري بهدوء واتّزان.. وحينئذٍ لا تقف الكبرياء عقبة في هذا السبيل، لأن الإنسان لا يشعر ـ في هذا الجو ـ بالإضطهاد، وإنما يشعر ـ بدلاً من ذلك ـ بالعزة والكرامة، لأنه في سبيل كشف حقيقة، وفي سبيل الوصول إلى طريق أفضل، دون أن يكون في البين مهزوم ومنتصر، أو غالب ومغلوب، وإنما هو الهدف المشترك والسبيل الواحد.

اختيار الأحسن هو
شعار المسلم في الحياة

والدعوة إلى سلوك الطريق الأحسن في مقام الجدل والصراع الفكري ليست بدعاً في القرآن، وليست دعوة تقتصر على هذا المجال، بل هي دعوة قرانية تخاطب كل مجال من مجالات الصراع في الحياة، وتتّصل بكل علاقة من علاقات الإنسان بأخيه الإنسان في مجالات الصراع . . إنها دعوة الله إلى الإنسان في قوله تعالى :

﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[1] .

﴿قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾[2] .

﴿وإذا حُيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردُّوها﴾[3] .

﴿واتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . . ﴾[4] .

هذه الدعوة الصافية التي توحي إليه بأن مهمّته في الحياة هي أن يثير في الإنسانية عوامل الخير، ويلتقي بها في عملية استثارة واستثمار، بدلاً من عوامل الشرّ التي تهدم ولا تبني، وتضر ولا تنفع . . وتدفعه ـ في الوقت نفسه ـ إلى أن يجعل «اختيار الأحسن» في كل شيء، وفي كل جانب من حياته، شعاره التي يرفعه في كل زمان ومكان .

وعلى ضوء هذا نجد أن سلوك الأسلوب الأحسن في مجالات الدعوة هو جزء من الأسلوب العام للسلوك الإنساني الذي شرّعه الإسلام في الحياة الاجتماعية .

---

(١) سورة فصّلت، الآية ٣٤ .
(٢) سورة الإسراء، الآية ٥٣ .
(٣) سورة النساء، الآية ٨٦ .
(٤) سورة الزمر، الآية ٥٥ .

خاتمة المطاف
مع الآية

وفي نهاية المطاف مع هذه الآية الكريمة نجد أن باستطاعتنا أن نضع أيدينا على دستور الدعوة وأسلوبها الذي شرعه الله في القرآن، ورسمه للنبي الكريم(ص)، وللدعاة من بعده. . فهو الأسلوب الذي يحاول أن يبني عقيدة، ويخطط تفكيراً، ويربح إيمان الإنسان وعقله.

وهو ـ إلى جانب ذلك ـ الأسلوب اليقظ الحذر الذي يملك دقّة الملاحظة وعمق النظر، فيلاحق الحوادث بسرعة، ويعيش الواقع بحذر، ويعالج المشاكل برفق ولين وحكمة. . وأخيراً ـ لا آخراً ـ هو الأسلوب الذي يؤمن بأصالة جانب الخير في نفس الإنسان، وإمكان استثارته ورفع الحجب عنه، وبأن على الدعاة إلى الله أن يفسحوا المجال لهذا الجانب في البروز والظهور، باتّباع الأوضاع الملائمة لذلك.

ونحن واجدون في هذا الأسلوب امتداداً للخط الإسلامي العام في السلوك؛ فقد لاحظ هنا ـ كما لاحظ هناك ـ جانب الضعف الإنساني، وجانب التمرّد الغريزي، فعالج المشكلة على أساس ذلك.

* * *

وما علينا ـ بعد ذلك ـ إلاّ أن نتلمس القرآن الكريم في عملية استقراء وتأمّل، لننظر مدى انسجام التطبيق العملي لهذه الفكرة مع أصل الفكرة العامة في خطوات الدعوة ومراحلها، لتكون أمامنا بمثابة الخطوات الأولى التي يقطعها الرائد في الدرب، ليسهّل على الآخرين قطع الطريق بسرعة ورؤيته بوضوح دونما جهد أو إبطاء.

نماذج تطبيقية

يلتقي القارىء للقرآن الكريم بآيات عديدة، يتجسّد فيها الخط العام للأسلوب القرآني في الدعوة، وتظهر فيها بوضوح مرونة الداعية وسعة أفقه، وطبيعته الإيجابية السليمة، وروحه الإيمانية الخيّرة. . ولعل القيمة التي تكمن في هذه الآيات لا تتمثّل في مجرّد تجسيدها الحي للفكرة العامة، بل تتمثل ـ بالإضافة إلى ذلك ـ في أنها عاشت التجربة الحياتية، ومثلت دورها الإيجابي في خطوات الدعوة الأولى على يد الرسول العظيم(ص) والمسلمين الأولين، ومن ثمّ فنحن واجدون فيها ذخيرة حيّة من تجارب الدعوة وخطاً واضحاً من خطوطها التي عاشت مرحلة التنفيذ.

* * *

والآن نحن مع بعض هذه الآيات واحدة واحدة.

[١] ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾[1].

* * *

في هذه الآية الكريمة يتحدّث القرآن عن الأسلوب الذي يريد للنبي(ص) أن يخاطب به منكري دعوته، والطريقة التي يحاول بها أن يدفعهم إلى الإقتناع برسالته والإيمان بمبادئها. . فهو لا يبدؤهم بتحدي معتقداتهم ومهاجمتها، بل يحاول إثارة الشك في أعماقهم حولها، وتمزيق الهالة القدسية التي تحيط بها في نفوسهم، وذلك بتصوير هذه المعتقدات كشيء قابل للأخذ والرد، ولذا فيمكن إثارة التساؤل حوله،

(١) سورة سبأ، الآية ٢٤.

وانطلاق الصراع نحوه . . وإذا كان الأمر كذلك فيمكن أن يتمخّض الصراع عن اكتشاف خطأها ومعرفة ضلالها .

ومتى وصل الإنسان إلى هذه النتيجة فسرعان ما يذوب الجليد المتراكم عن قلبه وعقله أمام أشعة الحق وهداه .

ثم يحاول ـ بعد ذلك ـ تحطيم روح العنف في موقفهم إمعاناً في تهيئة هؤلاء وإعدادهم نفسياً للدخول في الدعوة أو الإستماع إليها بهدوء وقناعة واطمئنان .

ومن الطبيعي لمثل هذا الوقف أن نجد الداعية يتنازل فيه عن موقف المعتقد بأحقيّة دعواه وبطلان دعوى الطرف الآخر . . فيقف في موقف الإنسان الذي يبحث عن الحق وينشده ، ويوحي لصاحبه ـ بطريقة ما ـ بأنه لا يستطيع أن يؤكد له ـ في بداية الحديث ـ أي الطريقين على هدى وأيهما على ضلال ؛ ولذا فإنه لن يحكم لنفسه بالهدى ، كما لن يحكم على رفيقه بالضلال ، لأن ذلك موقوف على الذي تصل إليه المناقشة ، وينتهي عنده الحديث .

ونلاحظ هنا أن هذا الأسلوب يساعد على انطلاق روح الحياد الفكري في ميدان الصراع العقائدي ، فإنه يهيّىء ـ إلى حد ما ـ الجو للتنازل عن طبيعة العناد والتعصب ، وعن الرواسب والأوضاع النفسية الخاصة التي تسود ميادين الصراع العقائدي غالباً ، وستكون النتيجة ـ في نهاية الأمر ـ للدعوة إذا كان الداعية ممّن تتوفر فيه صفات الداعية الحق الذي يحمل الرسالة بأمانة ووعي وإخلاص ، وتجتمع لديه شروط الإنسان الذي تقوم به الحجة لله على الناس ، وينقطع به العذر ، لأنه سيفتح له نوافذ المعرفة الواعية التي تطل به على مفاهيم الإسلام ومبادئه ، فتنفتح روحه لروحيتها السمحة وقيمها الروحية السامية .

* * *

ونحسب أن من الأسباب التي تدفع القرآن إلى التأكيد على هذا «الأسلوب السلمي» ، كما يحلو لنا أن نسمّيه ، وعلى بقيّة الأساليب التي تفسح المجال أمام الناس

الـذين نختلف معهم في الرأي لأن يتقبلـوا المفاهيـم الإسلاميـة بروح حيـادية واعيـة، وبطريقة عفوية لا شعورية، فنتـلافى بذلك الدخول في المجالات المحمومة التي تطغى عليهـا طبيعة التحـدي وروح الغلبـة والعصبية الفكـريـة، ممّـا قد يلجأنـا إلى استعمال أساليب أخرى نحن الآن في غنى عنها. . نحسب أن من الأسباب التي تدعو القرآن إلى التأكيد على ذلك ـ بشكل عـام ـ هو أننا نعتقد ـ كما ورد في الحديث ـ أن (الإسلام دين الفطرة)؛ فهو يلتقي بالفطرة الإنسانية في أصفى مشاعرها، وأعمق أحاسيسها، وأطهر دوافعها. . لـذلك فسرعان مـا تتقبله النفس الإنسانيـة وتلتقي به وتنسجم معـه نتيجة استجابته لحاجاتها الضرورية وأهدافها النبيلة وقيمها الأصيلة.

ولكن. . أين هي الفطرة التي تهيّىء لهذا التقبّل، وتوحي بهذا الإنسجـام، وتساعد على ذلك الالتقاء؟.

هذا هو الذي يحاول أن يصل إليه القـرآن الكريم في تأكيده على هذا الأسلوب، فيما نظن. فإننـا نعتقد أن (الفطـرة) لا تزال تعيش في داخل الإنسـان لأنها مرتبطـة بكيانـه ووجـوده، ولكنها تعيش تحت ركـام هـائل من العقائد الفـاسـدة، والأهواء الشريـرة، والشهوات المنحرفة. . الأمر الذي لا يسمح لـلإنسان أن يلتقي بفطرته في هدوء ليلتقي بالينبوع الصافي الذي ينبع مها، وبالحقيقة الكلية الرائعة التي تنطلق معها.

وهنا تبدأ مهمّة القرآن الكريم لرسم الطريق أمامه للرجوع إلى فطرته، ومساعدته على السير فيه من جديد، فيحاول الوقوف معه في نضاله من أجل الإنتصار على نفسه وعلى رواسبهـا العفنة، وذلك بسلـوك مختلف الأسـاليب التي تعينـه على أن يخطو خطـوات إيجابية في هذا المجال.

ونحسب أن هذا الأسلوب الذي صوّرته الآية الكريمة بأسلوبها الساحر الأخّاذ، من أجمل الأسـاليب التي يلزمنـا السير عليها في هـذا الطـريق، ومن أكثر الأسـاليب التي تتصل بـالهدف الذي نهدف إليـه من إرجـاع الإنسان إلى فطـرتـه، ليعود معنـا إلى دين الإسلام (دين الفطرة).

وربما نستطيع أن نجد في هـذه الطريقة التقـاءً بالطـريقة العلمية الحديثـة ـ في مجال البحث ـ أو شبهـاً بها، كما نبّه على ذلك الـدكتور محمـد حسين هيكل في كتابـه (حياة محمد)، فقال: «قد تأخـذ القارىء الدهشة إذا ذكر ما بين دعـوة محمد(ص) والطريقة العلمية الحديثـة من شبه قوي. فهذه الطـريقة العلمية تقتضيك ـ إذا أردت بحثـاً ـ أن تمحـو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سـابقة لك في هـذا البحث، وأن تبدأ الملاحظـة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنبـاط القائم على هذه المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلى نتيجـة من ذلك كانت نتيجـة علميـة خاضعـة ـ بطبيعـة الحال ـ للبحـث والتمحيص، ولكنها تظل علمية مـا لم يثبت البحث العلمي تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيهـا. وهذه الطريقـة العلمية هي أسمى مـا وصلت إليه الإنسانيـة في سبيل تحرير الفكر، و ها هي ذي مع ذلك طـريقة محمد(ص) وأساس دعـوته. فكيف اقتنع الذين اتبعـوه بدعـوتـه وآمنوا بها؟ نـزعـوا من أنفسهم كل عقيدة سـابقـة وبدأوا يفكـرون فيما أمامهم[1]».

* * *

[٢] قال تعالى: ﴿**قل إنما أعظكم بواحـدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكـروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذيرلكم بين يدي عذاب شديد..**﴾[2].

* * *

نحن الآن ـ مع هـذه الآية ـ بـإزاء مـوقف جديد تتعـرض له الدعوة، ويفـاجىء به الرسول الداعية في بدء الدعـوة؛ فهي ليست أمام فكرة تصادم فكرتها لتلتقي معها ـ في نطاق الصراع والجدل الفكري ـ بالفكر القوي المتّزن، وليست أمام قوة ماديةتصطدم بها في مجال الحرب والقتال، لتعد لها مـا تستطيع من قوة دفاعية، بل هـي أمام عدو يسبّ ويشتم، ويتّهم ويفتري، ولا شيء غير ذلك.

---

(١) للإطلاع على تتمة هذا الحديث يراجع كتاب (حياة محمد) د. محمد حسين هيكل ص ١٤٨.
(٢) سورة سبأ، الآية ٤٦.

ولا يملك الداعية ـ إزاء ذلك كله ـ أسلوباً مماثلاً لهذا الأسلوب، لسبب بسيط جداً، وهو أن ذلك لا يتلاءم مع الدعوة كدين يعيش في مستوى القيم، ولا ينفع في مجال الصراع، لأنه لا ينتج غير التهويش والتهريش.

إن الدعوة في مثل هذا الموقف أمام تهمة ظالمة طائشة، يحاول صانعوها أن يلصقوا بالنبي(ص) تهمة الجنون..

إنه مجنون!.. وإذن فهو لا يفقه ما يقول، ولا يعقل ما يصنع، وإنما هو اللاشعور ينطلق في عملية إيحاء مرتبك لا يرتكز على واقع ولا يستند على أساس.

فما الذي تفعله الدعوة مع هذا الأسلوب؟.

إنها تعرف جيداً أن مستوى الجماهير لا ينخفض عن السطح إلا قليلاً؛ فهو ليس (بعيد القعر) ـ كما يقولون؛ وتدرك إلى جانب ذلك طبيعة الغوغائية التي تكمن في نفس كل واحد منهم وجانب الإنفعال والحماس الذي سرعان ما يطغى ويثور.. الأمر الذي يمهّد للتهمة ـ أية تهمة ـ أن تنتشر وتمتدّ إلى ذهن كل واحد منهم دون محاكمة أو مناقشة، حتى لتنطلق بعد ذلك في صورة تيار جارف يجرف المشاعر والأحاسيس ويحوّلها إلى ما يشبه الطوفان، ولذا فإن الدعوة تدرك أنها تعيش في موقف معقد، لا بد لها في معالجته من الدقة والحذر.. فماذا فعلت؟

إنها لم تحاول أن تتّجه إلى الجماهير في وضع خطابي أو إقناعي لتدفع التهمة عن صاحبها ورائدها الرسول الأعظم(ص)، وذلك بتقديم الأدلّة والبراهين التي تدحض هذه التهمة، وتدفع هذه الفرية.. لأن الجماهير لا تفهم لغة الحجج والبراهين في طوفان الحماس والاندفاع، ولذا فهي لا تستمع إليها ولا تلقي بالاً لما تقول.. إنها لم تحاول ذلك ولم ترد هي أن تقوم بدفع التهمة، لأن صاحبها ـ في حسبان الجماهير ـ لا يعقل ما يقول!.. فكيف تقبل منه الحجّة بالدفاع عن نفسه؛ بل حاولت أن تدلّ هؤلاء الناس على منهج البحث وطريق المعرفة، وترجعهم إلى ذواتهم وفطرتهم ولكن بطريقة لبقة لا تشعر الآخرين بالغاية التي تنتهي إليها. فقد دعتهم إلى أن يتفرّقوا مثنى وفرادى، وينفصلوا عن الجو المحموم العاصف الذي يعيشون فيه، ثم يحاولون دراسة

هـذه النتيجـة الحاسمة التي يمليهـا عليهم تفكيرهم الخاص ومـلاحظتهم الشخصيـة لأفعال النبي(ص) وأقواله وسيرته العامة فيما بينهم .

. . فهي لم تقم بنفي الفكـرة ابتـداءً ولم تتخـذ لنفسهـا صفـة النـاقـد لهم والموجّـه لأفعـالهم، بل حاولت دعـوتهم إلى أن يناقشـوا الفكرة ويهيّئـوا لأنفسهم الجوّ الهادىء للتفكير والمناقشـة . فهي ـ في هذا الجو ـ أشبه بالمتّهم الـذي لا يحاول أن يدعي البراءة لنفسه أمـام القضاة، بل يكتفي بمحاولة إرشـادهم إلى أن يراجعوا الوثـائق والمستندات المتعلقـة بقضيته، ليحكمـوا عليـه من خلالها بما يـوحي إليهم ضميرهم بعيـداً عن أي تأثير، وهو واثق ـ في الوقت نفسه ـ أن النتيجة ستكون في صفّه .

ونحسب أن مثل هذا الأسلوب لا ينفصل عن تأدية الغـرض والوصول إلى الغاية . . من تراجع الآخـرين عن غيّهم وضلالهم، لأنـه ـ في الوقت الـذي يقـدم لهم المسـاعدة للوصول إلى الحقيقة ـ يوحـي إليهم بطريقة خفيـة بقوة الدعوة الفكرية وثقتها بنفسها؛ الأمر الذي يبرز واضحاً في هذا الهدوء النفسي الذي تواجـه به الدعوة خصومها، وهذا البرود الحماسي الذي تلاقي به الدعوة عناصر الشغب والتشويه التي تقف في طريقها .

* * *

علاقة الآية بفكرة «العقل الجمعي»

أمـا لماذا حـاولت الآيـة الكـريمـة أن تفـرّقهم «مثنى وفـرادى» وتفصلهم عن الجو المحموم . . فيحبّ بعض الكتاب المعاصرين أن يرجعه إلى فكرة «العقل الجمعي» الذي «بيّنه ووصفه الفيلسوف الإجتماعي» «جوستاف لوبون» حيث قال: إنه مهما كانت منزلة الأفراد الذين يكونون مجتمعـاً من المجتمعات، ومهما بلغوا من التشابه بعضهم لبعض، ومهما اختلفوا من حيث الميول ومقـدار الذكاء والمهنة ونظـام الحياة، فإن إجتماعهم معاً يمنحهم عقـلاً جمعيّاً، يجعلهم يفكـرون ويشعرون ويعملـون بطـريقة مخالفـة لطريقـة تفكيرهم وشعورهم وعملهم لو كان بعضهم بمعزل عن بعض .

وإن هناك عـوامل ثـلاثة أساسيـة تعمل على ظهور هـذه الروح الجمعيـة أو العقل الجمعي هي:

أولاً: ما يسمى بالشعور بعدم المسؤولية، فالفرد في الحشد يلقي المسؤولية على الجمع نفسه، ويتحرّر عادة من التعبير عن ميوله ورغباته وغرائزه، فهو يختفي وراء الجمع ويطلق العنان لما يكنّه في نفسه من الرغبات. والجمع بكثرة عدده مشجّع لإفرادعلى التعبير عن إحساساتهم في حماسة ويولّد عندهم قوة تدفعهم في اتجاه معين.

ثانياً: ما يسمى بالعدوى النفسية، ويقصد بهذه العدوى تلك الظاهرة النفسية التي تسري من فرد إلى فرد فتجعلهم يردّدون الشيء نفسه، وبشكل آلي. ولهذا هو يصفها بأنها عامل من عوامل «التخدير» الاجتماعي، به ينسى الفرد نفسه في سبيل غاية جمعية ويعمل ويتحرك لتحقيقها. فالمعتقدات سياسية كانت أم دينية تسري بين الجماعات بالعدوى على الخصوص، وعلى نسبة أفراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديداً ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قوياً بعد أن يكتسب الأفراد الذين يعتنقونه صفة الجماعة.

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يلتفت إلى قيمته العقلية، لأنه لمّا كانت العدوى تؤثّر في دائرة اللاشعور فإنه لا شأن للعقل فيها. وفي الغالب تكون العدوى ذات تأثير فيمن هم أرفع من في الجماعة؛ ولذلك يجب أن لا نعجب من وجود علماء يدافعون عن أكثر المعتقدات شؤماً ومخالفة للصواب.

ثالثاً: وهناك أخيراً عامل الإيحاء، وهو حالة يفقد فيها الفرد الإحساس بوجوده الشخصي بحيث يضعف وجوده الذاتي ويصبح تابعاً لا سيداً، يتحرك حسب ما يملى عليه ويطيع طاعة عمياء الزعيم المسيطر على الجمع الحاشد، ويصبح ألعوبة في يده، ولهذا تطغى الروح الجمعية عند الفرد على شخصيته الواعية وعلى إرادته وعلى أحكامه وأفعاله وتصرفاته.

ويقابل هذه العوامل صفات لا بد منها، هي من المشخّصات الضرورية للروح الجمعية والعقل الجمعي وهي:

أولاً: الاندفاع والانسياق بدون تردّد.

ثانياً: المبالغة في فهم الحقائق.

ثالثاً: عدم الثبات وسرعة التحول من رأي لرأي ومن فعل لفعل..»

ثم يتابع هذا الكاتب كلامه فيقول: «بعد كل هذا الشرح النفسي للعقل الجمعي قد بان لنا الحكمة في اشتراط الآية أن يكون التفكير بين اثنين اثنين، أو واحداً واحداً. خوف القضاء على الحقيقة في الزحام، وخفاء وجه صواب الرأي الاجتماع»[1].

* * *

أما تعليقنا على ذلك فيرتكز على نقطة أساسية واحدة هي:

أننا لا نستطيع إخضاع القرآن الكريم لمصطلحات وأفكار لا تزال موضع نقاش بين الباحثين، لأن ذلك يؤدي بنا إلى التراجع عن هذا التفسير عند تبدّل هذه النظرية، وهكذا دواليك في عملية تبديل وتغيير. ولا يخفىٰ ما في ذلك من الإساءة لقدسية القرآن ومكانته. ولهذا فنحن لا نوافق بأي وجه من الوجوه على المنهج الذي يحاول الكثيرون من كتابنا الإسلاميين أن ينهجوه في تفسير القرآن بالنظريات العلمية والاجتماعية والنفسية وغيرها..

وعلى ضوء ذلك فلا نستطيع أن نقرّ الكاتب على ما ذهب إليه من ارتكاز هذه الآية في مضمونها على نظرية (العقل الجمعي) التي تنبه لها (جوستاف لوبون)، (لأن هذه الفكرة ليست مما أجمع علماء النفس)[2].

وانطلاقاً من ذلك فلا بدّ لنا من أن نرجع بالآية إلى واقع القضية بعيداً عن المصطلحات والنظريات، وهي «أن الجماهير لا تتصف بمقتضى الحكمة التي يتصف بها الأفراد الذين تتكون منهم الجمهرة»[3]. ولذلك أمرهم الله سبحانه وتعالى «أن يقوموا «مثنى وفرادى». مثنى ليراجع أحدهما الآخر ويأخذ معه ويعطي في غير تأثّر

---

(١) عبد الوهاب حموده ـ القرآن وعلم النفس ص ٨٩ ـ ٩٢.
(٢) عبد العزيز القوصى. علم النفس ص ٣٩٠.
(٣) سيد قطب في ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٩١.

بعقلية الجماهير التي تتبع الإنفعال الطارىء ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادىء عميق»[1].

* * *

[٣] ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾[2].

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[3].

في هاتين الآيتين الكريمتين ــ وفي غيرهما ممّا يجري مجراهما ــ نلتقي بموقف جديد للدعوة إزاء جماعات يلتقون مع الدعوة الإسلامية في بعض مبادئها وهم أهل الأديان السماوية كالمسيحية واليهودية، الذين عبّر القرآن عنهم بـ «أهل الكتاب».

فما هو الأسلوب الذي تتبعه معهم؟ هل هو أسلوب المفاجأة والمباغتة بالدعوة الجديدة وبخصائص الافتراق بينها وبينهم لأول وهلة، والتركيز على نقاط الخلاف والنزاع في بدء الطريق؟. أو هو الأسلوب العملي الذي يحاول أن يبحث عن نقاط الالتقاء ويتلمّسها ليدعو الآخرين إلى الالتقاء على أساسها والوقوف معها كقاعدة للانطلاق إلى بحث التفاصيل والنقاط الأخرى التي قد تقع مورداً للخلاف.

في ملاحظتنا للآيتين المتقدمتين نجد أنهما تشيران إلى اتباع الأسلوب الثاني الذي يركّز على نقاط الالتقاء ومواطن الوفاق، فيناشدهم بما يقربهم إليه «ويدعوهم إلى مجرد التوحيد وهو القدر المشترك بين الأديان جميعاً وبين الرسالات جميعاً، وهو القدر الذي لا

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٩١.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٦٤.
(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

يتحقّق الإيمان بـدونه في أيّ دين من أديـان الله . فهي كلمة منصفـة تسوّي بين المؤمنين بالأديان جميعاً ولا يأباها أحد وهو مؤمن»[١] . .

ولقد أمر الله رسوله أن يجهر بهذه الـدعوة ، ليلتقي المؤمنون بالأديان جميعها على تلك الكلمـة السـواء ، ويفيئوا إلى عقيـدة التـوحيـد الخالصة المجـرّدة التي لا تجعل النـاس بعضهم أرباباً لبعض وكلهم من خلق الله . . فإن استجابوا فهم قريبون إذن من الإسلام إسـلام الوجـه والضمير لله وحـده دون سـواه ، وإن تولّـوا وأبـوا ﴿**فقولوا أشهـدوا بأنا مسلمون**﴾[٢] موحّدون لله لا نستسلم إلا لله[٣] .

ويبدو لنا أن هذا الأسلوب يعتبر من أروع الأساليب التي يمكن للدعوة أن تتبعها ، نظراً إلى أنه يمهّد للقاء على أساس قاعـدة ثابتة يؤمن بها الفريقان ، ويجمع القلوب على المبادىء العـامة التي يلتقي عنـدها الطـرفان . . فهـو يشعرهما بأنهما ليسـا غريبين عن بعضهما البعض ، وليسا بعيـدين كل البعد . . فإن هنـاك ما يشـدهما ويربطهما بـرباط القربى في العقيـدة التي يلتقيان عنـدها . فإذا انطلقـا ـ بعـد ذلك ـ إلى البحـث فـي التفاصيل فإنما ينطلقان بروحية جديدة وذهنية مرنة .

وينعكس هـذا الجو إذا انعكست القضية ، واتّبع الأسلـوب الذي يـركّز على نقـاط الخلاف ، فهو سيخلـق عند كل من الفـريقين جواً مشحـوناً بـالحقد والبغضـاء ، لأنه يوحي إلى كل منهما ـ لأول مـرة ـ بالفواصـل التي تفصلـه عن صـاحبه ، والفوارق التي تفرّقه عنه ، ويعمّق هذا الشعور بالبعد وهـذا الإحساس بالغربة عن الآخر. ولا بد لمثل هذا الجوّ مـن أن يؤدي إلى عكس الغرض ، فيـولّد التعصب والعنـاد والشك والحذر، ويثير روح الصراع الحقود بينهما ، لينتهي الموقف إلى لا شيء في جـانب الكسب الروحي للعقيدة ، وإلى تعقيد جديد للموقف ، وتعميق حيّ للخلاف . .

* * *

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ج ٢٦ ص ٨٣ ـ ٨٤ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .
(٣) المصدر السابق .

بين مضمون الآيتين وسورة «الكافرون»

ربما يسبق إلى الذهن تساؤل حول هذا الأسلوب وموقف القرآن منه . . لأننا قد نجد في الأسلوب المتمثل في سورة (قل يا أيها الكافرون) أسلوباً مخالفاً لما عرضناه آنفاً، لأنه يركّز على الفواصل التي تفصل الدعوة عن غيرها، ويؤكّد على عدم الإلتقاء في تكرار ملحوظ . .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿قل يا أيها الكافرون* لا أعبد ما تعبدون* ولا أنتم عابدون ما أعبد* ولا أنا عابد ما عبدتم* ولا أنتم عابدون ما أعبد* لكم دينكم وليَ دين﴾[1] .

ولكن يبدو الجواب واضحاً بتأمل بسيط . فقد جاءت هذه السورة في نهاية الصراع بن النبي(ص) وبين الكفار، وبعد أن وصل الأمر إلى حد المساومة من جانبهم للنبي(ص) في الدعوة، كما تنقل بعض الروايات التاريخية . فقد جاء في أسباب النزول للواحدي أنها «نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد: هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، نعبد إلٰهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك . فقال (ص): معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: **﴿قل يا أيها الكافرون . .﴾**[2] إلى آخر السورة . فغدا رسول الله(ص) إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا عنه عند ذلك . . »[3].

وسواء أصحّت هذه الرواية أم لم تصحّ فإن جوّ السورة يوحي بوجود مساومة من هذا القبيل . وهناك جهة أخرى نقف معها في الجواب، وهي أن هؤلاء الكافرين ـ الذين أُمر النبي (ص) بمخاطبتهم بالسورة ـ من مشركي مكة . ومن الواضح فقدان نقاط الالتقاء

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة الكافرون، الآية ١ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

بينهم وبين المسلمين في المبادىء العامة بطبيعة فقدان الالتقاء بين التوحيد وبين الشرك . . وعلى ضوء ذلك فلا مجال لتطبيق هذا الأسلوب عليهم .

وفي نهاية المطاف حول هذه الآية لا بد لنا من الإشارة إلى أن هذا الأسلوب لا يخلو ـ في جانبه العملي ـ من الخطورة ، لأنه قد يفسح المجال لأولئك الذين يخاطبون به لاستغلال طبيعته استغلالاً بشعاً ، فيحاولون أن يضلّلوا به المسلمين الساذجين ، باستخدام تلك النقاط التي يلتقون بها معهم في كسبهم إلى جانبهم ، وتقرّبهم إليهم . . ولذا فإن على الداعية أن يكون حذراً عند ممارسته هذا اللون من الأسلوب ، وأن يرجع إلى الخط العام لأسلوب الدعوة الذي يدعوه إلى استعمال الحكمة في دعوته عندما يدعو ، فيلاحظ ما يحيط به من ظروف وملابسات .

* * *

[٤] قال تعالى : ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[١] .

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[٢] .

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[٣] .

﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾[٤] .

﴿ . . فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾[٥] .

﴿ . . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾[٦] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ .
(٢) سورة التغابن ، الآية ١٢ .
(٣) سورة النور ، الآية ٥٤ .
(٤) سورة الحج ، الآية ٤٩ .
(٥) سورة النحل ، الآية ٨٢ .
(٦) سورة الشورى ، الآية ٤٨ .

في هذه الآيات الكريمة ـ التي نجد مضمونها شائعاً في القرآن بشكل ظاهر ـ يحاول القرآن الكريم أن يوحي للداعية، وللناس الذين يدعوهم، طبيعة المهمّة التي يمارسها الداعية، ونوعية الدور الذي يجب أن يقوم به. . فهي ليست مهمّة الإنسان الذي يفرض على الناس رسالته، ويقسرهم على اتباع دعوته والإعتقاد بها، بل هي مهمة الإنسان الذي يفتح للناس باب المعرفة، ويدلّهم على طريق الخير، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويبلّغهم رسالة الله.

فمهمّة الداعية إذاً هي مهمّة المبلّغ الذي يبلغ رسالات ربّه، ودوره هو دور المبشر والنذير الذي يبشرّهم بثواب الله وينذرهم عقابه، ولا شيء بعد ذلك غير الدعوة والتبليغ. .

وتنتهي مهمتّه عند ذلك لتبدأ مهمّة الآخرين في التفكير بما دعاهم إليه، والتأمّل فيما بشّرهم به وأنذرهم منه، ليصيروا بعد ذلك إلى الإيمان، أو يستمروا على الكفر.

إن موقفهم واستجابتهم ومدى التقائهم بالدعوة في عملية الإيمان لا يدخل ضمن مهمّة الداعية ومسؤوليته فقد انتهت مسؤوليته بانتهاء آخر كلمة للدعوة عندهم، وتمّت مهمّته مع آخر موقف للتبليغ معهم وآخر حجّة للدعوة عليه، لتبدأ مسؤوليتهم تجاه أنفسهم. . مسؤولية الفكر والملاحظة والإيمان **﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ﴾**[1] . . **﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾**[2] . . **﴿فإن تولّوا فإنما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم.﴾**[3] .

* * *

ونحسب أن هذا الأسلوب الذي اتّبعته الدعوة في تحديد مسؤولية الداعية وحصرها ضمن نطاق التبليغ يعتبر من أروع الأساليب التي تتّبع في هذه المجالات؛ لأنها تجعل الداعية، وجهاً لوجه، أمام مسؤوليته المحدّدة، الواضحة المعالم، البيّنة الحدود، فليس

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠.
(٢) سورة الشورى، الآية ٤٨.
(٣) سورة النور، الآية ٥٤.

له ـ كداعية ـ أن يجري هنا وهناك، تاركاً مهمّة الدعوة لقضايا أخرى لا تدخل في نطاق اختصاصه ووظيفته، بل عليه أن يتوفّر على دعوته، فيعمق اهتمامه بها، ويركّز وعيه داخل هذا الإطار في دقّة وحذر، لئلاّ يغفل بعض أدوات التبليغ أو يقصّر في بعض خطواته، أو ينحرف عن بعض أساليبه العامة أو الخاصة.

وهي ـ بالإضافة إلى ذلك ـ تُشعر الآخرين بمسؤوليتهم تجاه عقيدتهم، وباحترام الدعوة العميق لذواتهم وأفكارهم، حيث لم تجعل أحداً مسؤولاً عن هذا الجانب من حياتهم غيرَهم بعد أن هيأت لهم المجال الواسع، وفتحت أمامهم الآفاق الرحيبة، التي تساعدهم على حمل هذه المسؤولية وتحملها. وبهذا يتضح لنا تماماً كيف يلتقي هذا الأسلوب بالخط العام للأسلوب الإسلامي في الدعوة، لأنه يرتكز على ملاحظة الحكمة في طبيعة عمل الداعية ومسؤوليته، وطبيعة عمل المدعوين ومسؤوليتهم دون زيادة أو نقصان.

* * *

[٥] ومن النماذج التطبيقية لأسلوب الدعوة القرآني الذي يرتكز على الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن ما أشار إليه الحجّة البلاغي في كتابه «الرحلة المدرسية» بأسلوبه الذي جرى عليه في إبرازه أفكاره بطريقة روائية جميلة، تعتمد على المحاورة والمناظرة. ومن المفيد لنا ـ من أجل التعرّف على ملامح هذا النموذج ـ أن ننقل عبارته حرفياً. قال (ره):

(عمانوئيل) يا شيخ إنكم معاشر المسلمين تقولون إن التوراة الموجودة محرّفة بحيث سقطت عن الإعتبار، مع أن قرآنكم الذي تؤمنون بأنه كلام الله يصدقها ويعتبرها كتاباً إلهياً نبوياً، فماذا تقول؟

(الشيخ) يا أصحابنا إن بيان الحق في هذا الموضوع ربما يصعب عليكم فهل تسامحونني فيما أقوله؟

(القس) يا شيخ إن قرآنكم يقول: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[1] ويقول في مقام

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

آخر: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[1] وإذا تأدبت بآداب القرآن فلا عليك إذا اغتاظ المتعصب. بل قل ما عندك من الحق فلعلّك تصادف نفساً كريمة وقلباً نقياً.

(الشيخ) لا يخفى على من نظر في القرآن بنظر حر أنه جرى بكرامة منهجه على حقيقة الحكمة واللطف في الدعوة إلى حقيقة التوحيد وشريعة العدل والمدنية اللذين هما المقصود الأصلي والمطلب الأساسي. فسلك في أمرهما أحسن مسلك في الحجة، فلم يهاجم في الأمور الثانوية العرضية بصراحة تثير العصبية فتكون معثرة في سبيل المقصود الأصلي وروح الإصلاح مهما أمكن البيان لأولي العقول بنحو جميل. وليس من حكمة الدعوة لأهل الكتاب أن يجاهرهم بالصراحة بأن كتبهم التي بأيديهم قد كثر فيها التحريف والتبديل والكفر الوثني والخرافات الكثيرة والتناقض الظاهر، إذ لا يخفى أن المجاهرة بذلك تهيّج داء العصبية المهلك، وتنفر عن الإقبال إلى الإيمان الصحيح، وتصرف عن الإصغاء إلى بيان الحق.

(عمانوئيل) عجباً يا شيخ! هل يصح للقرآن إذ كان كتاب الله الهادي إلى الحق أن لا يبين هذا الأمر الكبير.

(الشيخ) لا ينحصر البيان بالمجاهرة التي ذكرناها، بل إنه أظهر ذلك وأضحه بأحسن بيان، وأجمل إيضاح. فأوقف ذوي العقول على بعض موارد التبديل والتحريف والزيادة بخصوصياتها بحيث تنتبه عقولهم ووجدانهم أنهم لذلك على حين غفلة من هياج العصبية. فتعرّض لذكر القصص التي لها وقوع في التاريخ فنزّهها عن الخرافات والأغلاط الزائدة، وأوردها على الحقيقة المعقولة استلفاتاً للعقول إلى الخرافات الدخيلة في الوحي. وأما ما لم يكن له نحو وقوع فلم يتعرّض لتكذيبه بالصراحة، لكنه أودع في معارفه ما يوضح تكذيبه.

(عمانوئيل) هذا شيء في غاية الحكمة بحسن الإرشاد[2]».

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) الشيخ محمد جواد البلاغي: الرحلة المدرسية، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، طبعة ثانية.

ويبدو لنا أن ما نقلناه وافٍ بتوضيح هذا النموذج وبيان ملامحه، فلا حاجة بنا ـ بعد ذلك ـ إلى أن نطيل الحديث حوله، بل كل ما عندنا من القول هو أن هذا الأسلوب يعتبر جزءاً من الأسلوب العملي العام الذي يعالج القضايا بصمت، ويدعو إلى فكرته بسكون وهدوء. فهو لا يخاطب الآخرين برأيه في قضاياهم وآرائهم مباشرة وبصراحة، بل يترك لهم أن يتعرّفوا على هذا الرأي بأسلوب عملي، ويتعرفوا على وجه الحق فيه أيضاً.

إنه الأسلوب الذي يحاول أن يجد الحجّة عملياً في أقواله وأفعاله، دون أن يخاطب الناس بنتائجها ومقاصدها. ولذا فهو يمثّل الدعوة بالحكمة أصدق تمثيل.

* * *

وحدة طرائق الدعوة في رسالات السماء

لو تتبعنا حديث القرآن عن الأنبياء والرسل (عليهم السلام) الذين عاشوا في حياة البشرية، ولمسنا ـ برفق وحذر ـ المواقف التي كانوا يقفونها في سبيل الدعوة إلى الله عبر رسالاتهم، والأساليب التي كانوا يتبعونها في طريق الدعوة. . لرأيناها تنسجم إلى أبعد حد، وتلتقي مع الخط العام للأسلوب الإسلامي في الدعوة؛ فلن تجد أمامك العنف والشدة والغلظة، وإنما تتمثّل ـ بدلاً من ذلك ـ اللين والتسامح والرفق والرحمة، وتلتقي بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن في أكثر من موقف وفي أكثر من آية. .

وليس ذلك غريباً بعد أن كان الإلٰه واحداً، والدين واحداً، والرسل يعيشون ـ أيضاً ـ وحدة الأهداف والوسائل. .

وماذا بعد ذلك؟. .

إن الإنسان هو الإنسان في كل زمان. . في نوازعه وميوله. . في مشاعره وأحاسيسه. فلن يختلف الخط العام للأسلوب الحكيم الذي ينفذ إلى تلك المشاعر والأحاسيس، ويطامن من تلك النزعات والميول. . بل تختلف كيفياته وأشكاله تبعاً للتطور الفكري والعقلي والاجتماعي، حسب التطوّر الزمني.

وليس بوسعنا ـ في هذه العجالة ـ أن نستعرض كل موقف من هذه المواقف التي وقفها الأنبياء في رسالاتهم التي وجّهوها إلى قومهم وواجهوا بها البشرية في جميع مراحلها، وإنما نكتفي بعرض بعض النماذج التي توضح الحقيقة التي قدمناها. .

مع إبراهيم (عليه السلام)

نلتقي ـ في بداية الحديث ـ بموقف إبراهيم (عليه السلام) وهو يستعرض العقائد الشائعة في زمنه . . في نوعية الإله الذي يعبد وحقيقته : فهناك عقيدة تؤلّه الكواكب، وأخرى تؤلّه القمر، وثالثة تؤلّه الشمس، فماذا كان موقفه تجاهها؟ وما هو الأسلوب الذي اتّبعه في إقناع الناس ببطلان تلك العقائد، وسخافة مثل هذا الاتجاه؟ . .

إنه لم يتوجه إليهم مباشرة ليقول لهم تلك الحقيقة، ولم يفاجئهم بإعلان الحقيقة الأصيلة للعقيدة . . وإنما سلك إلى ذلك سبيل المناجاة الذاتية التي تتمثل في حديث الإنسان مع نفسه وهو يلتمس الطريق في حيرة التيه . . فحاول أن يثير هذه العقائد مع نفسه، وكأنها مجرّد نظرات تلوح له وهو يتأمّل، وقضايا تعرض له وهو يفكر . . ويبدأ بعد ذلك في نقدها ومناقشتها ـ في إطار ذاته ـ كعقيدة شخصية . . ويمضي في هذا الاستعراض، وهذا التأمّل، وهذا النقد . . حتى يصل إلى الحقيقة الكليّة التي تبدو وكأنها قضية تفرضها البداهة ويعيّنها الواقع .

ولنقرأ الآيات الكريمة التي عرضت لهذا الموقف، ليتجلى لنا مدى التقاء هذا الأسلوب بما عرضناه سابقاً من النماذج التطبيقية من الأساليب التي تحاول أن تثير الشك لدى المخاطب في عقيدته، وتبعث لديه روح التساؤل، دون أن ينتبه إلى الهدف الأخير، ومن غير أن تثير فيه غريزة التعصّب لمعتقداته .

قال تعالى : **﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين* فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين* فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين* فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين*﴾**[1] .

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٥ ـ ٧٩ .

ونلتقي بإبراهيم (عليه السلام) أيضاً في موقف آخر، حاول فيه أن يجعل قومه الذين يعبدون الأصنام وجهاً لوجه مع الحقيقة التي توضح لهم فساد عقيدتهم وسخافتها . . كل ذلك في أسلوب مفاجىء يرجعهم إلى فطرتهم دون سابق إنذار، ويدفعهم دفعاً إلى الاعتراف بالحقيقة التي يريدها . فقد تحدّث القرآن الكريم عن المحاورة التي دارت بينه وبين قومه حول الأصنام التي يعبدونها، وحديثه إليهم في طبيعة هذه العبادة، ومدى ما فيها من ضلال، وما أعقب تلك المحاورة من قيامه بتكسير الأصنام كلها إلا الصنم الكبير الذي استبقاه ليجعله منطلَق حجتّه، وما لنا نطيل الحديث حول الموقف والقرآن أمامنا يعرض الموقف بكل بساطة ووضوح! فلنستمع إليه في سورة الأنبياء حيث يقول :

﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين* قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين* قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين* وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون* قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم* قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون* ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون* قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم* أُف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون*﴾[1].

ولن نحتاج إلى كبير جهد لنلاحظ كيف جعلهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة التي تنطق بظلمهم، وتعلن لهم خزي موقفهم مع هذه الآلهة التي لا تقدر على النطق .

إنه الأسلوب الذي يرجع الإنسان إلى فطرته، ويجعله ينطق بالحجّة على نفسه دون شعور والتفات .

* * *

(١) سورة الأنبياء، الآيات ٥١ ـ ٦٧ .

مع نـوح (عليه السلام)

ونلتقي بعد ذلك بنوح (عليه السلام) فيما يحدثنا به القرآن عن موقفه مع قومه، وعن أسلوبه الـوديع المتسامح الذي يصوّر لهم طبيعـة مهمّته، ونوعيّة رسـالته التي تقوم على الخير والعدل والهدى، ويعـرض لهم دوره ـ فيما يعـرض ـ كنـاصح مشفق يخاف عليهم العذاب والضلال.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومـه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره إني أخاف عليكم عذاب يـوم عظيم* قال الملأ من قـومه إنـا لنراك في ضلال مبين* قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين* أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون* أوَعجبتـم أن جاءكم ذِكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون*﴾[1].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قـومه إني لكم نذير مبين* أن لا تعبدوا إلا الله إني أخـاف عليكم عذاب يـوم أليم * فقال الملأ الذين كفـروا من قومـه ما نراك إلا بشراً مثلنا ومـا نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ومـا نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين* قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلـزمكموها وأنتم لها كـارهون* ويا قوم لا أسألكم عليـه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنـوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون* ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تـذكّرون* ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقـول إني ملك ولا أقـول للذين تـزدري أعينكم لن يـؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين* قالوا يا نوح قد جـادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت مـن الصادقين* قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ومـا أنتم بمعجزين* ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كـان الله يريـد أن يغويكم هو ربكـم وإليه ترجعون* أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون*﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ٥٩ ـ ٦٣.

(٢) سورة هود، الآيات ٢٥ ـ ٣٥.

مع هـود وصالـح (عليهما السلام)

وهكذا نلتقي بهود وصالح (عليهما السلام) في أسلـوبهما الهادىء المسالم الذي واجها به قومهما في دعوتهم إلى الله .

قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون* قال الملأ الذين كفروا من قـومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكـاذبين* قـال يـا قوم ليس بي سفـاهـة ولكني رسـول من رب العـالمين* أبلّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين* أوَعجبتم أن جاءكم ذِكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطةً فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون*﴾[1].

وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿وإلى ثمود أخاهـم صالحاً قال يا قـوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينّة من ربكم هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّـوها بسـوء فيأخذكم عـذاب أليم* واذكروا إذ جعلكم خلفـاء من بعد عـاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهـولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتـاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين* . . إلى أن تقول : «فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين*﴾[2].

مع موسى (عليه السلام)

ثم ننتقل بعد ذلـك إلى موسى (عليه السـلام) وهو يـواجه فرعـون في عتوّه وطغيـانه وجبروته ، ويجعله وجهاً لـوجه مع الدعوة إلى الله وإلى رسالته . فقـد أرشده الله سبحانه إلى الأسلوب الـذي ينبغي له أن يسير عليه ويتّبعـه في إقامـة الحجّة وإبلاغ الـدعوة . . فالموقف لا يتنـاسب أبداً مع أسلـوب الشدّة ، لأنـه لا يوصل إلى الغايـة المطلوبـة وهو الإيمان بـالله ، بل ربما يزداد الموقف تعقيـداً بذلـك بما تفرضـه طبيعة التحـدي من ردود الفعل السيّئة في مثل هذا المجال ، ولا سيما مع فرعـون الذي انطلقت به مطامحه ونوازعه

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٦٥ ـ ٦٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآيات ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٩ .

إلى دعوى الربوبية، فلم يبقَ إلا أسلوب الرفق في المواجهة واللين في القوة؛ فهو الوسيلة الطبيعية للايمان، والسبيل العملي الأقرب لربح الموقف.

على ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الآية الكريمة التي وردت لتوجّه موسى وهارون عليهما السلام في رسالتهما الإلهية التي انطلقا بها إلى فرعون.. ﴿**إذهبا إلى فرعون إنه طغى**..﴾[1]. فلا يمكن أن يترك في طغيانه، بل لا بد من إيقافه عند حدّه، وإرجاعه عن غيّه..

ولكن أي أسلوب هو الأسلوب الذي يتبّع في البداية؟

هل هو اسلوب القوة؟.. إنه لا يجدي، ولا يتناسب مع روح الرسالة الإلهية التي لا تلجأ إلى القوة وإلى العنف إلا بعد استنفاد الوسائل السليمة.. فربما يكون هذا الطغيان ناشئاً عن غفلة أو نسيان، أو استسلام للقوة المادية التي يتمتع بها، وضعف القوى الأخرى التي تحيط به.. الأمر الذي يجعله في غفلة عن القوة القاهرة التي تسيطر على كل ما في الكون من قوىً. ولذا فلا بد للداعية في البداية من أن يثير لديه الذكرى ليتذكر.. ويجعله وجهاً لوجه أمام قوة الله التي لا تقف عند حد، ليخاف ويخشى ويتضاءل ويتصاغر أمام القوة الإلهية المطلقة..

وإذاً فلا بد من القول الليّن، لأنه يتيح للفكرة أن تحافظ على هدوئها بعيداً عن جو الحماس والتحدي، ويفسح للداعية أن يملك زمام نفسه بعيداً عن جوّ الإثارة والصخب، ويعطي المخاطبين مجال التأمل والتفكير، دون أن يتعرضوا لهزّة المفاجأة العنيفة التي تثير أعصابهم وتتركهم يعيشون في إطار الذات والشخصية بعيداً عن الفكرة والتفكير. ومن هنا جاء التوجيه منسجماً مع الحكمة، ومنطبقاً على الموعظة الحسنة في قوله تعالى:

﴿**فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكّر أو يخشى**﴾[2].

ونستطيع أن نلمح في التعبير بـ «لعل» التي تدّل على «الترجّي» الذي يعطي قرب حصول الفعل.. أنه لا بد للداعية من أن يلاحظ في الاسلوب قابليّته للتأثير في قرب

(١) سورة طه، الآية ٤٣.
(٢) سورة طه، الآية ٤٤.

حصول الفعل وتعجيله . . فلا يكون الترجّي منطلقاً من الواقع الشخصي للمخاطب بقدر ما يكون جارياً مع الطبيعة المرنة للأسلوب . .

* * *

وهكذا نلمس في كل دعوة من دعوات هؤلاء الأنبياء وغيرهم ممن عرض القرآن لذكرهم في أكثر من موضع . . موقف النبي الذي يسمو على الإضطهاد ويرتفع على الظلم، فلا يثور ولا يغضب عندما تفاجئه الشتائم، أو تهاجمه التهم، وإنما يحاول أن يتحدى العاصفة بهدوء الرسالة التي تعرف هدفها جيداً، ولذا فهي تسير نحوه بخطوات متّزنة ثابتة لا تنحرف ولا تزيغ، وإنما تنطلق لتوجّه وتناقش وتنصح إخلاصاً لصفة الرسالة وانسجاماً مع روح التبليغ . .

وإنها الروح المطمئنّة الخيرة التي تسير في دروب القيم، على مستوى الرسالات، لتجمع الماضي والحاضر والمستقبل في وحدة رسالية رائعة .

خاتمة المطاف

وخلاصة الحديث ـ في قضية الاسلوب على ضوء النماذج التطبيقية التي كنا نتحدث عنها ـ أن القرآن قد وضع أمامه قضية أساسية ـ في مجال هداية الناس ودعوتهم إلى الدين الحق ـ وهي : أن على الداعية أن يبعث الحركة والحياة في أسلوب الدعوة وطريقتها، فلا يدعها تتجمد أمام موقف واحد، أو تتعنّت في محاولة واحدة، بل لا بد له من أن يجعلها حركة دائمة، وحيوية دافقة، تعمل في أكثر من صورة، وتتحدث في أكثر من مجتمع، ولا تقتصر على جبهة واحدة، وإنما تعمل في عدة جبهات .

ولا بد لها ـ إلى جانب ذلك ـ من حساسيّة ذكية، تبحث عن اللمسة الخفية في الكلمات، وتفتش عن الهزّة العاطفية في المشاعر، وتدقّق في اللفتات الدقيقة للعقول والأفكار . . لتحتضن ـ عبر ذلك ـ مشاعر الناس وآلامهم وعواطفهم في الطريق السوي لكسب أفكارهم وعقولهم في راحة الوحي وطمأنينته .

وهي ـ في نهاية المطاف ـ حركة دائمة في سبيل التفيش عن أفضل الأساليب وأحسن الوسائل وأقرب الطرق لهداية الناس وكسب أفكارهم ومشاعرهم إلى صف فكر الدعوة ومشاعرها، انسجاماً مع مبدأ الإسلام الأفضل في اتباع الوجه الأحسن، في كل شيء، في جميع الظروف والحالات .

القسم الثاني

مع المستشرقين
في أسلوب القوة في القرآن

لا بدّ للباحث الذي يحاول التعرف على الخطوط العامة لأسلوب الدعوة في القرآن الكريم ليستخلص منها النتيجة الحاسمة التي تطبع أسلوب الدعوة الإسلامية بطابع الحكمة والتسامح والنظرة الواقعية الواعية التي تراعي تكوين الإنسان الذاتي وظروفه العامة . . لا بد لهذا الباحث من الوقوف طويلاً مع الآيات القرآنية التي تأمر المسلمين بالقتال، وتدفعهم إلى الحرب، وتدعوهم إلى جهاد الكفار بأسلوب حماسي مثير، كما نقرأ ذلك في الآيات الكريمة التالية :

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾[1].

﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ [2].

﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [3].

وإذا تمَّ له ما يريد من هذه المعرفة فعليه أن يقارن بين النتيجة التي يخلص إليها وبين طبيعة الأسلوب العملي للدعوة، لينظر مدى الانسجام بينهما في الخطوط والأهداف .

أما الحاجة إلى مثل هذا البحث، أو هذه المعرفة، فتنطلق من الاتجاهات

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٤٤ .
(٣) سورة التوبة، الآية ٣٦ .

الاستشراقية وغيرها التي حاولت أن تطبع الأسلوب الإسلامي للعمل ـ في مجال الدعوة ـ بطابع القـوة، وتصوّره للعالم الغربي بصـورة الدّين الذي يمارس عملية سفك الـدماء، وقتل الآمنين من الأبرياء، بحجّة الدعـوة إلى الله . . إمعاناً في إبعاد الإنسان الغربي عن الإسلام، وانطلاقاً من قاعدة الحقد الأسود ضد الإسلام والمسلمين .

ويحاول هؤلاء المستشرقون ـ استكمالاً لعملية التشويه والتحريف ـ أن يفسرّوا الآيات الداعية إلى الرفق والتسامح واللين في الدعوة، والتعاليـم التي توجّه الدعاة نحو العناية بـدراسـة ظـروف الآخـرين والتعـرّف على قـابليـاتهم الـذهنيـة والـروحيـة والاجتماعيـة . . فينحرفـون بها عن الصـورة الواقعيـة الـوضيئة التـي يتمثّل فيها الطـابع السلمي المتسامح لأسلوب الإسلام في الدعـوة إلى الله، ليخضعوها لمرحلة زمنية معينة لم يكن استعمال القـوة فيها أمـراً ممكنـاً، ولم يكن اللجوء إلى العنف معهـا طـريقة عمليـة للوصـول إلى الهدف . . حتى إذا استقـام للإسـلام أمره، واستراح إلى قـوّته نجـده يبدأ مرحلة جديدة في العمل ترتكز على القسوة . وتعتمد على العنف والقوة، وبهذا تمكن من أن يضم إلى صفوفه هذه الجموع الغفيرة من الناس .

وهكذا كملت الصورة التي حاولوا أن يعرضـوا بها الإسلام للآخرين . وهكذا تمَّ لهم أن يبعدوا الإنسان الغربي عن الإسلام . . حتى رأينا أديباً عظيماً مثل «برنارد شو» يعجب لعالم إسلامي ـ التقى به في بعض البلـدان ـ أن يحاضر في فلسفة السلام، فيما نقلته مجلة «المسلمون» من المحاورة التي جرت بينه وبين الشيخ عبد العليم الصديقي، فقد فاجأه «برنارد شو» بقوله :

«دار حديثك حول فلسفة السلام، وقـد كان الأجدر بك ما دمت مسلماً لو تحدثت عن فلسفة الحرب، لأن الاسلام إنما انتشر بحدّ السيف»[1] .

وإذا جرينا قليلاً مع هذه المحاورة فسنجد مبلغ تأثر هذا الأديب الكبير بهذه الفكرة إذ يتساءل ـ بعـد أن حاول العالم المسلم أن يصحّح نظرته من خـلال التهمة التي نسبها إلى الإسلام ـ بقوله :

---

(١) المسلمون : عدد ١٢ ـ س ١٣٨٣هـ ـ ص ١٤٧ .

«قد نقرّ سيادة كثير من ضروب الفهم للإسلام؛ لكن.. هل توافقك الجماهير المسلمة على تفسيرك؟ وهل يعتقد هؤلاء أن الإسلام لم يسبق له أن انتشر بالقهر وما ينبغي له ذلك؟»[1].

ولم تقف الفرية عند هذا الحدّ، بل حاول بعضهم أن ينكر على الأساليب السلمية ـ التي مارسها الإسلام في الدعوة ـ قابليتّها لإحراز أي نجاح. فهي ـ من وجهة نظره ـ لم تستطع أن تحرز أي تقدم للدِّين، لأن تعاليمه ومبادئه المجرّدة لا تشجع الآخرين على الدخول فيه واعتناقه طواعية واختياراً. فقد قال «فردريك دنيون موريس»: «من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلا عندما كان يهدف إلى الغزو..».

أمّا الفكرة التي تفسر الأسلوب السلمي للدعوة الإسلامية بمرحلة زمنية معنية لم يكن استعمال القوة فيها أمراً عملياً، فنستطيع أن نتعرّف عليها من خلال ما ذكره صاحب كتاب «الدعوة إلى الاسلام» حيث يقول:

«وقد أكّد الكتّاب الأوربيون مراراً أن النبي سلك مسلكاً جديداً تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذين كان قد أقنعهم بالحجّة بصدق الدِّين الذي أوحي إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون معتصباً مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسة في فرض نفسه وفرض آرائه»[2].

* * *

وهكذا يجد الباحث الواعي ـ الذي يحاول التعرّف على الصورة الوضيئة الواضحة للإسلام ـ نفسه وجهاً لوجه أمام هذه الصورة القاتمة للإسلام، وللدعوة الإسلامية في أسلوبها العملي؛ الأمر الذي يجعل معالجتها والوقوف عندها واجباً علمياً تفرضه سلامة البحث ونزاهته، قبل أن يكون واجباً دينياً تفرضه طبيعة الدِّين وسماحته.

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ـ الترجمة العربية ص٥٣ ـ ٥٤.

وقبل أن نجري في حديثنا إلى ما نريده ونحاوله، نجد أنفسنا أمام ضرورة ملحّة تدفعنا إلى التطلع إلى دوافع هذه التهمة التي ألصقها الكتّاب الأوربيون بالإسلام، أو بالأحرى القضية التي تجعلهم يتّخذون هذا الموقف العدائي للدعوة الإسلامية، فليست القضية ـ فيما نظن ـ مجرد حقد شخصي تفرضه دوافع شخصية بحتة.. بل هي فيما نحسب قضية «المسيحية» و «الدفاع عن المسيحية» التي تعرضت إلى غزو فكري وروحي إسلامي، يجعل قضية وجودها مهدّدة في محيطها العام.

وكان من بعض الأسلحة التي اتخذوها في صد الإسلام من أن ينطلق إلى حياة الإنسان الغربي، سلاح الإثارة والتشويه، الذي يحاول أن يصوّر الإسلام غولاً بشعاً يفترس الأمن والطمأنينة والإستقرار، ويفتك بالحياة الوديعة المسالمة، ويهدم الحضارة الإنسانية، ويتحوّل بالإنسان من حضارة متطورة متطلعة إلى الأمام أبداً إلى حياة بدائية رجعية ترجع إلى الوراء دائماً.

وهكذا كانت الفكرة التي قدمناها مظهراً من مظاهر هذه الحرب التي خاضوها ضد الإسلام والمسلمين.

ونحن لا نريد أن نخوض بحثاً مقارناً بين الإسلام والمسيحية، أو نستنطق مصادر كل منهما في القضايا العامة التي أثارها هؤلاء الكتّاب؛ أو نرجع إلى التاريخ لننظر كم ظُلمت المسيحية على أيدي معتنقيها بسبب الدماء التي سفكت باسمها، والإضطهاد الذي تعرّضت له جموع غفيرة من البشر من أجل إدخالهم في الدِّين.. نحن لا نريد مثل هذا البحث، لأننا لسنا بصدد مقارنة بين الأديان، و لأننا نعلم أن الأديان بشكل عام برئية من كثير من المظالم والآثام التي ترتكب باسمها، وندرك ـ إلى جانب ذلك ـ أنه ما من دِين أو مبدأ إلا وقد عاش مثل هذه التجربة التي تبتعد به عن هدفه، وتنحرف به عن مقصده؛ ولذا فليس من العدل والإنصاف، أو من سلامة البحث ونزاهته، أن ندخل مثل هذه الوقائع في مجال الصراع العقيدي والجدل الفكري.

.. بل نحن هنا في محاولة للإشارة ـ مجرّد إشارة ـ إلى أن المسيحية ـ من وجهة النظر التشريعية ـ لا تستنكر استعمال القوة في سبيل الدفاع عن الحق، فإنجيل «لوقا» يذكر في

العـدد السـادس والثـلاثين من الفصل الثـاني والعشرين أن المسيح أراد من تـلاميـذه الإستعـداد للـدفـاع بـالسيف، وقـال لهم: «من ليس لـه سيـف فليبع ثـوبـه وليشترِ سيفاً»[1].

ومـا دام استعمال السيف في مقام الـدفـاع أمراً مشروعـاً لـدى المسيحية، فما الـذي يستطيع هؤلاء أن يجدوه في الإسـلام مما لا يجدونه في المسيحية من تشريع؟ هـذا ما سنراه في حديثنا هذا إن شاء الله.

***

أمّا القضية التي تواجهنا في مدخل الحديث فهي أن الاسلام قد شرّع الجهاد كفريضة دينية، يترتب عليها كل ما يترتّب على الفرائض الـدينية من آثار وأحكام. تلك قضية لا ريب فيها؛ فقد أصبحت من ضروريـات الدين وبديهياته وقد عـالجها القرآن أكثر من مـرة، وبالغ في التشـديـد عليهـا والتأكيد على الإلتـزام بها والمحـافظـة عليها، وأنـذر المتسامحين فيها والمتهاونين بها عقاباً شديداً، كما وعد القائمين بها أجراً عظيماً.

ومادامت القضيـة في هذا المستـوى من الوضوح فلن تثير لـدينا أي سـؤال في طبيعة تشريعها كفـريضة دينيـة عملية، ولكننـا نستطيع إثارة هـذا السؤال معهـا في الأهداف التشريعية التي استهدفها الإسلام من تشريع الجهاد.

فهل هي أهداف دفاعيـة أو وقائية تستهدف تركيز الكيـان الإسلامي ودفع الأخطار عنه، وفسح المجال أمـام الدعوة الإسلامية لتنطلق دون حاجـز مادي أو معنوي؟. أو أنها ليست كـذلك، بل هي أهـداف تجري في مجال آخـر يستهـدف إدخـال النـاس في الإسلام قسراً.

وبتعبير آخر يجعل المسألة أكثر التصاقاً بموضوع حديثنا في أسلوب الدعوة:

هل كانت الحرب في الإسلام ـ التي تتمثّل في تشريع الجهاد ـ طريقـة إسلامية لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وأسلوباً لدعوة الناس الى اعتناقه قسراً أو إكراهاً؟.

---

(١) الرحلة المدرسية: البلاغي ج ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

أو أنها كانت طريقة واقعية يفرضها الواقع الخارجي لكل دعوة ومبدأ، للدفاع عن كيانه، وحفظه من أعدائه.

هذا هو السؤال الذي يواجهنا في مدخل القضية..

أمّا الجواب عنه فله أكثر من جانب، وأكثر من جهة.. لأننا في سبيل معرفة إسلامية تشريعية، ترتبط بالقرآن الكريم كمصدر أول من مصادر التشريع التي نستنطقها لمعرفة حدود التشريع وأهدافه. ولذا فلا بد لنا من استنطاق الآيات الكريمة التي عرضت لأهداف الحرب والجهاد في الإسلام، وللحيثيات التي لاحظها التشريع الإسلامي في هذا المجال.

وتتصل من ناحية أخرى بالتاريخ الإسلامي، من خلال عرضه لحروب النبي (ص) وغزواته، من حيث إنها تمثّل أفعال النبي (ص) وتصرّفاته، كمصدر ثانٍ من مصادر التشريع، وهو «السنّة». ولذا فلا بد لنا من استنطاق هذا التاريخ لنتعرف منه الطابع الذي يسود هذه الحروب ويسيطر عليها من حيث كونه طابعاً عدوانياً أو دفاعياً.

وسنحاول أن نرى بعد ذلك ما إذا كان التشريع الإسلامي يسمح أو يقرّ مبدأ الإكراه على الدين كأسلوب من أساليب العمل.

ومتى تمَّ لنا ما نحاوله من المعرفة في هذا الحديث فسنجد أمامنا قضية لا بد لنا من معالجتها، وهي قضية اعتبار بعضهم الأسلوب الإسلامي المتسامح في الدعوة تابعاً لمرحلة زمنية معينة لم يكن اللجوء إلى القوة فيها أمراً عملياً. وسنحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ أن نتعرف مدى صحّة ذلك بالرجوع إلى الواقع التاريخي لتشريع هذا الأسلوب في الإسلام واستنطاقه حول هذه القضية.

***

مع آيات القتال في القرآن

والآن نحن هنا مع آيات القتال واحدة واحدة، في محاولة استنطاق واعية لأهداف القتال وغاياته:

[١] قال تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[١].

قال المفسّرون: إن هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال[٢]. وقيل في سبب نزولها: إن هذه الآية نزلت في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من أوطانهم فلما قووا أمرهم الله بالجهاد وبيَّن لهم أنه أذن لهم في قتال من ظلمهم وأخرجهم من أوطانهم. ومعنى بأنهم ظلموا.. أي من أجل أنهم ظلموا[٣]».

ويذكر الواحدي سبب النزول بتفصيل أكثر فيقول: قال المفسرون: «كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله (ص) فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوهم إلى رسول الله (ص) فيقول: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال. حتى هاجر رسول الله (ص) فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤]».

هذا هو ما قاله المفسرون.. فما الذي تعطيه لنا هذه الآية، وما الذي نستفيده منها على ضوء ذلك؟

لقد عرضت الآية لتشريع القتال في بدايته، بأسلوب يحاول أن يجعل القتال حقاً للمقاتلين، وضرورة حتمية لحياتهم الجديدة التي بدأوا يمارسونها في ظل الدِّين الجديد.. وذلك بإبراز حكمة التشريع وحيثياته التي تبرّره.. فقد ذكرت الآية الكريمة أن المسلمين قد ظلموا من قبل المشركين الذي يقفون منهم موقف المقاتلين المعتدين. ومتى وقع الظلم على أحد، ثبت له الحق في دفع الظلم عن نفسه والأخذ بحقه من ظالمه.

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) التبيان في تفسير القرآن ج ٧ ص ٣٢٠ ط النجف.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٢٣٢.

أمّـا كيف تمثّل هذا الظلم في حـالة المسلمين مع المشركين . . فقـد حاولت الآيـة أن تعطي بعض مظاهره وتبرز بعض خطوطه .

فقد خرج المسلمـون من مكة ـ وطنهـم الأول ـ ، ولكن . . لا طـواعية واختياراً ، بل كان ذلك نتيجـة الإضطهاد والعسف والقسوة والضغط المعنـوي والإقتصادي والتنكيل والتعـذيب بأفظع أشكـاله وألـوانه ، ولم يكـن باستطـاعتهم الـدفاع عن أنفسهم لقلـة عـددهم وضعف عـدّتهم ممّـا جعل الظلم يتجسّـد بشكل أفظع وصـورة أقسى . وإذا كانت الأسبـاب التي شاركت في خروجهـم هي هذه الأسباب فمن الطبيعي حينئـذٍ ما نجده في تعبير الآية عن هـذا الخروج بالإخراج الذي يعطي معنى القهـر والإكراه وعدم الاختيار.

والقضية الأخـرى التي يتمثّل فيها ذلك الظلم هي أن إخـراج المسلمين من دينهم لم يكن نتيجـة ذنب جناه هـؤلاء ، ولا جريمـة اقترفوهـا ، بل كان نتيجـة أنهم قالـوا «ربنا الله» . . . تلك الكلمة الحقّة التي كانت متنفساً لإيمانهم ومنطلقاً لعقيدتهم ورمزاً للدِّين الذي انطلق في حياتهم الجديدة .

وعلى ضوء هذا تتجسّـد لنا فظاعة الظلم ، وتبرز وحشيته ، فقـد يمكن للإنسان أن يبرّر إبعاد شخص عن ملاعب صباه ومواطن ذكرياته بمبرّرات تلتقي بالإخلال بالأمن ومخالفة النظـام . . أما أن يكـون التبرير لـذلك منطلقاً من إعـلانه كلمـة الحق وإظهار عقديته بالله فهذا أمر فظيع .

هذان مظهران للظلم عـرضتهما الآية لتجسّد الظلم أمام الآخـرين ، وبالتالي لتجعل الإذن بـالقتـال أمراً طبيعيـاً . ففي المظهـر الأول تعتصر العـاطفة ، لأنـه يتصل بإبعـاد الإنسان عن مـلاعب صباه ومواطن ألفـه . . وفي المظهر الثاني تختنق الـروح ، لأنه يمنع الإيمان من أن يتنفس ، والعقيدة من أن تنطلق .

وربما يسيء البعض فهم الحكمة التشريعية فيذهـب بها بعيداً عن وجهتها ، ويبتعد بها عن خطوطها المستقيمة . . فقـد يحلو لبعضهم أن يفسر هذه الحكمة بأنها تعبير عن طبيعة الثأر للذات ، وتنفيس عن الكبت الشخصي الذي يعـانيه المظلوم عند عجزه عن

الانتصار لقضيته . . وإذاً، فهي لا تمثّل شيئاً أساسياً في حكمة التشريع بقدر ما تمثّل دافعاً شخصياً للرغبة في القتال .

ولكن يبدو لنا أن هذا التفسير خاطىء، وبعيد عن جوّ الآية . فقد نستطيع أن نفهم بوضوح مدى ابتعاد القضية عن الجانب الذاتي والدافع الشخصي إذا لاحظنا طبيعة المبرّرات التي يبرّر بها المشركون موقفهم الظالم من المسلمين .

فالمسلمون ـ فيما تعرضه الآية ـ لم يعانوا الاضطهاد، ولم يقعوا تحت طائلة الظلم نتيجة جريمة اقترفوها، أو ذنب جنوه بل لأنهم آمنوا بالله واعتقدوا به، واتبّعوا النبي (ص) فيما بشّر به وأنذر.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، وإذا كانت القضية في هذا الإتجاه، فمن الطبيعي أن يعتبر هذا الاضطهاد موجّهاً إلى العقيدة، وذلك الظلم واقعاً على الدين الذي يعتنقه هؤلاء ويحملونه . . وما دامت القضية قضية عقيدة تُضطهد ودين يُظلم فلا مانع من أن تنتفض هذه العقيدة لتحمي حرّيتها، ولا غرابة في أن ينطلق هذا الدِّين ليحرس تعاليمه وأحكامه .

ولن نحتاج بعد ذلك إلى جهد لنعرف أن الدفاع عن العقيدة هو إحدى الحقوق الطبيعية التي توحي بها الفطرة ويقرّها النظام .

ولولا ذلك لا يمكن للحياة أن تعيش، ولم يتيسر للعقائد والأديان أن تنطلق وتتركّز وتمتدّ في الحياة الإنسانية .

وهذا ما حاولت الآية الكريمة أن توضحه وتجلوه في قوله تعالى : ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . .**﴾[1].

فلولا أن الله قد أذن لأصحاب العقائد أن يدافعوا عن عقيدتهم، ويمنعوها من أن تضطهد وتظلم، ولولا أن التشريع الإلهي أقرّ لهم ذلك كحق تفرضه الفطرة ويدعو إليه

(١) سورة الحج، الآية ٤٠ .

النظام. . لولا ذلك لم يمكن للعقيدة إلا أن تختنق وتتهدم وتتلاشى أمام قوة الباطل وطغيانه؛ فلا يستطيع المسلم أن يمارس عبادة الله في مسجده، كما لا يستطيع المسيحي والموسوي أن يمارسا عبادتهما في الكنيسة والبيعة. ومن هنا كان حق الدفاع ضرورة حتمية للحياة، وشريعة الجهاد قانوناً لازماً لإقامة النظام وحفظ التوازن وتحطيم الطغيان.

وخلاصة القضية أن الآية لم تحاول اعتبار الدعوة إلى الدِّين والإكراه على العقيدة من مبرّرات تشريع القتال والإذن فيه، بل كل ما حاولته وأوضحته هو أن تجعل القتال نتيجة طبيعية للإضطهاد الذي عانته العقيدة من أعدائها، والعذاب الذي لاقاه أتباع العقائد من الكفار. . الأمر الذي جعل قضية تركيز قوتها وتأكيد منعتها أمراً حتمياً طبيعياً تفرضه حاجتها للحياة وللحرية، وتقتضيه سنّة الله في خلقه وعباده.

* * *

[٢] قال تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ (١).

﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّين كلّه لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير*وإن تولَّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير**﴾ (٢).

في هاتين الآيتين يبرز سبب آخر للحرب، ولكنه سبب يتّصل بقضية العقيدة مباشرة. فقد انطلق المشركون ـ والإسلام لا يزال في بدايته ـ يمارسون عملية الضغط بكافّة ألوانه ضدّ المسلمين الذين دخلوا الإسلام من جديد، وابتدأت مظاهر هذا الضغط تتمثّل في المحاولة الدائبة في فتنة المسلمين عن دينهم؛ سواء في ذلك الأساليب التي تتّصف بطابع القسوة والعنف، أو الأساليب التي تتّصف بالخديعة والإغراء.

وهنا وجد الإسلام نفسه مهدّداً في قضية وجوده. فقد أصبحت المسألة مسألة حياة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٩ ـ ٤٠.

أو موت . . فهو إن وقف وسالم وسلك طريق الدعة والمسالمة فسيجد نفسه وجهاً لوجه أمام الخطر الداهم، في موقف حاسم، لا يستطيع معه الدفاع ولا يتمكن عنده من التقدم.

وبذلك كان القتال ـ حيث لم تنفع الموعظة ـ بالنسبة إليه قضية حيوية حتمية تخاطب واقع حياته، وهو ـ في الوقت نفسه ـ لم يبتدىء بها، وإنما اضطر إليها . . وهكذا نزلت هذه الآية لتأمر المسلمين بالقتال مبينة لهم أهدافها[1] الدفاعية التي تتعلق بسلامة العقيدة وسلامها، ليكونوا على بيّنة من أمر الحرب التي يخوضونها، وليكونوا على يقين من شرعيّتها من خلال الأهداف الواضحة بعد أن كانوا على يقين من ذلك من خلال الأمر الإلٰهي المجرّد . . وهكذا بيّنت الآية للمسلمين أن من أهداف هذه الحرب أن يوقف المشركون عند حدّهم في عملية الضغط التي يمارسونها ضد هذا الدِّين، فلا تعود الفتنة[2] في الدِّين تهدّد عقيدة المسلمين، ولا يعود الشرك قوة تضع العقبات في

---

(١) يذكر جمع من المفسرين أن (حتى) ـ في الآية ـ بمعنى «إلى»، فتكون الآية على هذا محددة لأمد القتال، ومبينة لوقته، وعلى ضوء هذا لا تكون الآية واردة لبيان أهداف التشريع وحيثياته، ولكنها لاتخلو من إشعار بذلك نظراً إلى أن ارتفاع الفتنة، وسيطرة الدين، إذا كانت غاية تنتهي الحرب عندها فنستطيع أن نفهم منها انطلاق القتال من علة وجود الفتنة في الدين وسيطرة الكفر على الإيمان كما إذا قلت: تناول الدواء حتى تشفى، فإن المفهوم منه أن الشفاء وإن كان غاية وقتية لتناول الدواء لكننا نفهم منه أنه مسبب عن تناول الدواء. ومع ذلك فإن من القريب جداً ـ كما يساعد عليه الذوق العرفي ـ أن تكون (حتى) ـ هنا بمعنى «كي» للتعليل وهذا ما جرينا عليه في حديثنا عن الآية وتعليقنا عليها.

(٢) فسرّ كثير من المفسرين ـ كما روى ذلك عن بعض الأئمة من أهل البيت (ع) ـ الفتنة بالشرك، وقد ذكر الشيخ الطوسي في تفسيره «التبيان» توجيهاً لذلك بأن الكفر يؤدي إلى الهلاك ولأن الكفر إظهار الفساد عند الإختبار، والفتنة إنما هي الإختبار، ولكننا نحسب أن هذا التفسير لا يستهدف بيان المعنى المطابقي للفظ، بل هو جار مجرى التطبيق. فإن الظاهر منها «ما يفتن الناس عن دينهم»؛ وعليه فيكون إطلاقها على الشرك باعتبار كونه أداة فتنة للمسلمين من حيث هو قوة سياسية واجتماعية، كما ذكره في مجمع البيان ـ بعد أن فسّر الفتنة بالشرك ـ قال: ومعناه حتى لا يكون كافر بغير عهد كان عزيزاً في قومه يدعو الناس إلى دينه فتكون الفتنة في الدين»، وقد ذكر الطوسي في التبيان، في وجه العدول إلى لفظ الفتنة عن لفظ الكفر ما لفظه «والفرق بين قوله: حتى لا تكون فتنة وبين قوله: حتى لا يكون كفر في أن الذليل والأسير والشريد لا يفتن الناس في دينهم لأن الذل لا يدعو إلى حال صاحبه كما يدعو العز. .» والله العالم.

طريق الدِّين الحق، بل يكـون الدِّين لله . . يلتقي عليه الناس جميعاً في أصـالة فطرتهم ونقاء نفوسهم، بما يجعله في داخله من قوة وجلاء ووضوح ويسر وسهولة ومرونة .

وإذا كانت أهداف الحرب التي تتمثّل في الآية هي عدم فسح المجال للفتنة في الدِّين أن تمتد، وإعطاء الحرية للدِّين بأن ينتشر ويتسع، بإزاحة العقبات عن طريقه، فلا بد لها من أن تقف وتنكمش عند ارتفاع الفتنة وعند قوة الدين واتساع مجاله .

وهكذا نرى أن أهداف القتال في هذه الآيـة ليست هي الدعوة إلى الدخول في الدِّين قسراً . فهي لم تقل : قاتلوا الناس من أجل أن يدخلوا في الإسلام، بل كل ما أرادت قوله وتوضيحة هو إفساح المجال للعقيدة الجديـدة الوليدة لأن تمارس دور الدعوة لنفسها في حرية واطمئنـان بعيداً عن كل ضغط أو تأثير خارجي، وهـو أمر لا نحسب أن شريعة من الشرائع، أو قانـوناً من القوانين، لا يعترف به أو يقـرّه كمورد من موراد الـدفاع عن العقيدة وأتباعها .

[٣] قال تعالى : ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الـذين يقولون ربنا أخرجنـا من هذه القرية الظالم أهلهـا واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(١) .

﴿فقـاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك وحـرّض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ (٢) .

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين﴾ (٣) .

﴿فإن لم يعتـزلوكم ويلقـوا إليكم السَّلم ويكفّـوا أيـديهم فخذوهم واقتلـوهم حيث ثقفتموهم﴾ (٤) .

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتـال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به

(١) سورة النساء، الآية : ٧٥ .
(٢) سورة النساء، الآية ٨٤ .
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٠ .
(٤) سورة النساء، الآية ٩١ .

والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا . . ﴾[1].

﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون* ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرّة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ [2].

هذه هي بعض الآيات التي نلمح فيها الإشارة ـ من قريب أو من بعيد ـ إلى أهداف الحرب في الإسلام . . فترانا نلتقي فيها بقضايا عديدة، سبقت الإشارة إلى بعضها في حديثنا عمّا سبق من الآيات، ونستطيع أن نلخص هذه القضايا بإجمال في أمور:

أ ـ الإنتصار للعقيدة المضطهدة التي حاول المشركون، ويحاولون بعد ذلك، خنق حرّيتها . وهذا الذي قد نلتقي به في التعبير بالصدّ عن سبيل الله .

ب ـ الإنتصار للمظلومين والمضطهدين من أتباع العقيدة وأنصارها من المستضعفين من الرجال والنساء الذين يستغيثون بالله ويطلبون النصرة في الدعاء الذي تذكره الآية : ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . . ﴾[3].

جـ ـ إضعاف قوة المشركين وتحطيم بأسهم، لئلاّ يبقى الكفر قوة تمنع الإسلام من متابعة سيره وتحقيق أهدافه الثورية والإصلاحية .

د ـ دفع العدوان الحربي المتمثّل في حركات الكفار الحربية ضد المسلمين . ونلمح ذلك في قوله تعالى : ﴿وقاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم . . . ﴾[5].

هـ ـ قيام المشركين بعملية فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولات الردّة التي يمارسونها

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧ .
(٢) سورة التوبة، الآية ١٢ـ ١٣ .
(٣) سورة النساء، الآية ٧٥ .
(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٠ .
(٥) سورة النساء، الآية ٩١ .

بمختلف الأساليب: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾[1].

و ـ نقض العهود التي عاهد عليها المشركون النبي (ص)، ومحاولة الاعتداء في ذلك.

* * *

هذه هي بعض أهداف الحرب وغاياتها التشريعية؛ وهي من الأهداف المتصلة بحرية العقيدة، وحرية أتباعها، وإفساح المجال لها لتمتد وتنتشر، ولأصحابها وأتباعها ليقوموا بواجبهم الدِّيني في مهمّة نشر الدعوة. فقد جاء الإسلام رسالة عالمية ودعوة شاملة للناس جميعاً، تنظّم لهم حياتهم وتخطط لهم طريقهم الذي يسيرون عليه، وتخرجهم من الظلمات إلى النور. فلا بد له من ممارسة دعوته في حرية تامة، لأنه يعتمد في ذلك على مهمّة الإقناع التي لن تتحقق إلا إذا أُتيح للناس فهم هذه العقيدة الجديدة والإطلاع على ما فيها من رخاء وسعادة وضمان لمستقبل الدارين.

ومن الطبيعي عدم توفر مثل هذا الجوّ في ظل الظروف العصيبة التي يعاني فيها المجتمع ضغط القوى الكافرة وعدوانها. الأمر الذي يجعل القيام بصدّ هذه القوى عملية دفاعية محضة، تمارس فيها العقيدة قضية الدفاع عن حياتها ووجودها.

وخلاصة الحديث في هذا الجانب من البحث أن الرجوع إلى الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت لأهداف التشريع الإسلامي للحرب وغاياته يعطينا نتيجة حاسمة تبعد الدعوة إلى الدين وإدخالَ الناس فيه عن تلك الأهداف التي ذكروا، ولن نعدم الآيات التي تدلّنا دلالة واضحة على أن النبي (ص) لو ترك وشأنه ولم يعرض له المشركون ويقفوا أمام دعوته ويضطهدوا أتباعه ويصدوهم عن سبيل الله ويخرجوهم من أوطانهم لما كانت هناك حرب، ولما كان هناك قتال.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

مع حروب النبي (ص) وغزواته

هذا هو الجانب الثاني من الحديث، وهو الذي يتصل بالواقع التاريخي لحروب النبي (ص) باعتبارها التجسيد الحي للأهداف التشريعية التي عرضت لها آيات الجهاد. . ومن ثمَّ فنحن واجدون فيها الصورة السليمة للتشريع في إطاره العملي، دون انحراف أو التواء، وإنما هي الاستقامة في خطها الواضح المستقيم، انطلاقاً من سيرة النبي (ص) القرآنية ومن عصمته الذاتية، وارتكازاً على الواقع التاريخي الذي يؤرخ لأسباب نزول الآيات القرآنية المتعلقة بالجهاد، والذي نجد فيه أن تلك الحروب التي خاضها النبي ضد الكفار كانت بوحي التوجيه القرآني الذي كان يطالع به الوحي النبي (ص) صباح مساء. .

وبتعبير أدقّ، لقد كانت الحروب الإسلامية في زمن النبي (ص) سائرة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم. فهو الذي يوحي لها الأهداف، ويضع لها الخطط، ويبعث فيها الحياة؛ ولم تكن آيات الجهاد إلا بوحي من ذلك الجو الذي ألمحنا اليه.

وعلى ضوء ذلك. . فلن نعدم فيما عرضناه الصورة الاجمالية لواقع تلك الحروب من حيث أسبابها وأهدافها. . ولكننا لا نكتفي بهذا المقدار من العرض، حذراً من أن تكون هناك بعض الظلال التي تحجب بعض ملامح الصورة عن الناظرين، ولهذا فنحن هنا في محاولة للوصول إلى معرفة تفصيلية خاطفة حول الموضوع، بالرجوع إلى ما يذكره المؤرخون وأرباب السير.

* * *

مع غزوة بدر

نلتقي باديء ذي بدء بحرب بدر. . وهي الحرب التي كانت مثاراً لحملة ظالمة من قبل المستشرقين ضد الإسلام وصورة حيّة يعرضونها للناس، كدليل قاطع على روح الإسلام العدوانية؛ فقد ظهرت في بداية تكوين الكيان الإسلامي في المدينة كبداية للعمل الحربي المنظم في سبيل إدخال الآخرين في الإسلام قسراً، واكراههم على

اعتناقه . . كما حاولوا أن يجدوا فيها الطابع الـذي كان يسود الحياة العربية في الجاهلية، وهو طـابع الغزو من أجل السلب والنهب والحصول على الغنـائم والأسلاب . . وذلك بسبب انطـلاقهـا من تعـرّض المسلمين لتجـارة قـريش التي كـانـت تنتقل بين مكـة والشام . .

* * *

أمـا نحن فنحسب أن هذه الصـورة التي يعـرضونها لحرب بـدر لم تكن لتنسجم مع الواقع، وإنما تلتقي مع الجهل ـ أو التجاهل ـ بـالظروف العصيبة التي عاشها المسلمون في مكّة، والموقف الذي تتخذه قريش ضد المسلمين، وطبيعة الجو النفسي الذي يسيطر على واقع الحياة العربية التي ولد الدِّين الجديد في ظلّها آنذاك . .

ولسنا نطلـق هذا الحكم جـزافاً، لأننا سنـرى ـ فيما يأتي من حـديث ـ أن البـاحث الواعي لن يستطيع أن يخرج بجـزء من هذه الصـورة، فضلاً عن تمامها، إذا قـدّر له أن يتعرف إلى الجوانب التي ألمحنا إليها .

* * *

لقد عـرفنا ـ من خلـال عرضنا لآيـات الجهاد ـ مـدى الظلم والاضطهاد والضغط المعنوي والمادي الذي مارسه المشركون ضد المسلمين، وأدركنا الخطر الذي يتهدد الدِّين الجديـد والدعـوة الـوليدة من المشركين، بسبب الموقف العـدائي الصريح الـذي كانـوا يقفـونه من الإسـلام، ولن نعدم الـدليل التاريخي الـذي يعطينا الفكـرة الواضحـة عن حقيقة موقف قريش من الإسلام، فقد تبلـورت الروح العدائية التي يحملونها إلى شعور عميق حاقد بضرورة الدعوة المنظّمة إلى حرب الإسـلام والكيد له وتحشيد القوى العربية وغيرها ضده، بكل ما تملكه من وسائل القوة والإغراء التي كانت تملك الكثير منها .

* * *

وهكذا كانت قوة قـريش السياسية والمادية مصدر خطر دائم على الـدعوة الوليدة، لأنها كانت تجد في هذه الدعوة خطراً محقّقاً على نفوذها وتقاليدها . وممّا كان يزيد الموقف دقـة وحـراجة هـي النظرة التي حملتهـا قـريش، والفكـرة التي كـوّنتهـا من تجاربها مع

المسلمين في مكّة حـول ضعف المسلمين وعـدم قدرتهم على النهـوض أمامهـا . . الأمر الذي زاد ضراوة موقفها واستعدادها للقضاء على قوة هذا الدِّين في مهده .

أمّا الجوّ النفسي الذي كان يسيطر على الحياة العـربية آنذاك ، بشكل عام ، فهو جوّ القوة إذا صح التعبير. فقـد كان تقديس القـوّة وتعظيمها ، واحترام القوي هـو الطابع الذي يميز تلك الحياة ، ويلونها بلـونه الخاص ، بسبب التكوين الاجتماعي الذي يسود الحياة العربية ، وذلك أن القبلية كانت هي النظام المتبع السائد فيها . .

ومن الطبيعي لمثل هذا النظام الـذي لا تحكمه قوانين الدولة ، ولا سلطـة الحكومة ، أن يعتمـد القوة في حيـاته حيث تلتـزم كل فرقـة بـالدفـاع عن نفسها بنفسهـا ، وتبقى السيادة للأقوى .

وإذا كان الأمر كما ذكرناه فكيف يمكن للدعوة الإسلامية أن تنفذ إلى هذه الجماعات وتسيطر عليها ما دامت قريش هي الجانب الأقوى في مجال الصراع ، وما دامت الجماعة الإسلامية هي الجانب الأضعف في الميدان؟!

ولهذا كان قيـام المسلمين بحركـة قوية ضـد قريش من الأمور التي تفـرضها حـاجة الدعوة إلى الحياة ، وإلى الدفاع عن نفسها . . بطبيعـة التجربة التي عاشها المسلمون مع قريش والجوّ النفسي الذي يسود الحياة العربية آنذاك .

كان لا بد من أن يلجأ المسلمون إلى القوة ، وإلى ممـارسة هذه القوة عملياً ، ولكن لا ليجرّبوا عضلاتهم ، بل ليحطموا الحاجز المادي والعنوي الذي يقف حائلاً بين دعوتهم وبين الآخرين .

وهكذا كانت واقعـة بدر منطلقة من هذا الواقع وناشئـة من هذه الأسباب . . وهي أسبـاب لا ترتبط بإكـراه الناس على الـدخول في الإسـلام ، ولا تتصل به من قـريب أو بعيد .

لقد كـانت هذه الـواقعة ، بمقـدماتها التي هُيّأت لها مـن التعرّض لأموال قـريش ، تستهدف فتح الطريق بين المسلمين وبين قريش ، للدخول في معركة فاصلة ، يستردّ بها

المسلمون أموالهم التي صادرتها قريش، وديارهم التي أخرجتهم منها، وشخصيّتهم التي ضاعت مظاهرها في جوّ الإضطهاد الذي تعرّضوا له من قبل قريش.

وهكذا كان.. فقد شعرت قريش بقوة هذا الكيان الجديد، وشعر العرب معها بأن قريشاً لا تمثّل وحدها مركز الثقل في تلك البلاد، والقوة الأولى في ذلك المجتمع.. وهكذا شاركت هذه الحرب في تحطيم هيبة قريش، وإضعاف قوة الشرك، وظهور القوة الإسلامية الجديدة التي ترتكز على الحق والعدل قبل أن ترتكز على الجاه والثروة.. وبدأ العرب ـ منذ ذلك الحين ـ يتّجهون إلى المدينة حيث الرسول العظيم(ص) في دولته الجديدة، ينطلق لإعلاء كلمة الله.. فيدخلون في دين الله أفواجاً.

أما السلب والنهب فهما أبعد شيء عن أهداف المسلمين الذين عرضوا لقوافل قريش، بل هما من قبيل المظهر البدائي للحرب الإقتصادية التي كانت من قبيل المعاملة بالمثل. ولو أراد المسلمون ذلك لكان بإمكانهم التعرض لغير قريش، من الكفّار الذين يجاورونهم في المدينة من اليهود.. مع أنهم لم يعرضوا لهم وإنما عاهدوهم على حسن الجوار والمعاملة بالحسنى والعيش معهم بسلام.. الأمر الذي يدلّنا على أن تخصيص قريش بهذا الاجراء كان مظهراً من مظاهر التحدي لقريش في سلطانها وعزتها وتحطيم كبريائها من أجل إزحاتها عن موقفها العدائي ضد الإسلام والمسلمين.

* * *

وتتابعت حروب النبي (ص) مع الكفّار بعد ذلك.. وامتدت حتى آخر حياته الشريفة.. ولكنها كانت تختلف عن حرب بدر، بوضوح الطابع الدفاعي فيها، الذي يجعل من الحرب ضرورة حياتية للوجود الإسلامي. كما يتبين منها خطأ الفكرة القائلة بأن الحرب كانت تستهدف الدعوة إلى دخول الناس في الإسلام قسراً وإكراهاً.

ولإيضاح هذه الفكرة نحاول أن نعرض هذه الحروب عرضاً سريعاً خاطفاً يوضح الصورة التي نريد إعطاءها في حديثنا هذا.

ولمّا كان العلاّمة المجاهد المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي قد عرض لذلك في كتابه «الرحلة المدرسية»، في محاولته معالجة الفكرة التي نحن بصددها، أحببنا أن ننقل

حديثه بكامله، لوفائه بالحديث الـذي نريده، أولاً، ولأنه يتيح لنا أن نحيا مع ذكراه في آثاره التي خدم بها العقيدة الإسلامية ثانياً.

* * *

قـال رحمـه الله:

غـزوة بنـي القينقـاع

ولمّا قدم (محمـد) في هجرتـه إلى المدينة رأى أن مـوقع الإسـلام والمسلمين بين اليهود خطر. فإنهم كانوا محدقين بالمدينة وهم بنو النضير وبنو قريضة وبنو قينقاع. فكان أول أعمال (محمد) في هجرتـه أنه عاهد هؤلاء اليهود على السلم وأمـانة الجوار وأن لا يكيدوا المسلمين ولا يخونوهم ولا يساعدوا عليهم عدواً. ولكن بني قينقاع غدروا بعد وقعة بدر وصاروا يكـاتبون المشركين وأنشبوا حـرباً بينهم وبين المسلمين فغـزاهم (محمد) وانتصر عليهم فطلبوا النجاة بالجلاء عن بلادهم فسمح لهم بذلك.

حرب أحد

ثم تجمعت قريش بعـدتها وعديـدها وغزوا (محمـداً) وأصحابه الى المدينـة في السنة الثالثـة من الهجرة حتى وصلـوا إلى مكان يقال لـه «أُحد» وهـو يبعد عن المدينـة بأميال يسيرة.

تأكيد العهد مع اليهود. وجلاء بني نضير

ورأى محمد أن اليهود لا يكادون يثبتون على عهدهم فقصـدهم هو وأصحابه لتأكيد العهـد وأخـذ الميثـاق منهم. فأبى بنـو النضير فعـدل عنهم إلى بني قـريضـة فأعطـوه عهودهم مجدداً على أن لا يغدروا بهم ولا يساعدوا المشركين عليهم، فرجع عنهم إلى بني النضير وحـاصرهم على اعطاء العهـد فـاختاروا الجلاء عن بـلادهم فسمح لهم بـذلك حفظاً للسـلام بين البشر، فحملوا كـل ما يقدرون على حملـه، ونزل أكثـرهم في (خيبر) لكي يكيدوا محمداً عن قرب.

حرب الأحزاب

ثم جمعت قريش في السنة الرابعة من الهجرة جموعها منها ومن أحلافها من القبائل، وكذلك «غطفان» وأهل نجد وتحزّبوا على قتال (محمد) وأصحابه. وكان الساعي في هذا التحزّب غطفان وأهل نجد مع قريش على الحرب هم جماعة من يهود بني النضير الذين أجلاهم محمد ونزلوا خيبر ومنهم آل أبي الحقيق وغيرهم، فقصدوا المدينة بجيش عظيم يعدّ بنحو عشرين ألفاً، فخندق (محمد) على المدينة وحاربهم. وقد كانوا كاتبوا بني قريضة على الغدر بمحمد والنهوض إلى حربه فخفّ بنو قريضة إلى الغدر ونقض العهد وبدا منهم الإعتداء فأرسل إليهم (محمد) حليفهم سعد بن معاذ رئيس الأوس مع جماعة من الأوس والخزرج فوجدهم على أقبح الغدر. حتى صار بعضهم يغير على بيوت المدينة ومجامع العيالات.

غزوة بني قريضة

وحينما انكسرت جيوش قريش وانحلّ جيش الأحزاب عطف محمد وأصحابه على الغدرة بني قريضة فحاصرهم فجعل بنو قريضة حكمهم إلى سعد بن معاذ رئيس الأوس لأنهم كانوا حلفاءه قبل الإسلام وظنوا أن سعداً يتساهل معهم فوافقهم محمد على ذلك ولم يصمّم على حربهم. فحكم سعد بقتلهم فنفذ حكمه بالغادرين. ولو أنهم اختاروا الجلاء إلى حيث يؤمن غدرهم لسمح لهم (محمد) كما سمح لبني قينقاع وبني النضير ولو شفّع فيهم سعد لتركهم له. فإن من المعلوم من حال (محمد) أنه كان يحب السلم وصلاح البشر والعفو إذا أمن من فساده، ولم ينصبغ العفو بصبغة الضعف والوهن.

حرب بني المصطلق

وفي السنة الخامسة أو السادسة صار بنو المصطلق يستعدّون لحرب (محمد) فغزاهم وظفر بهم.

صلح الحديبية

وفي ذي القعدة من سنة ست قصد مكة للحجّ والطواف بالبيت ومعه من أصحابه نحو سبعمائة رجل، وقدّموا ذبائح العبادة سبعين بعيراً جعلوا عليها علائم الهدي لكعبتهم ورسوم العبادة ولكي يطمئن أهل مكة بالسلم، فصدّه أهل مكة واستعدوا لحربه وطلبوا رجوعه، فسمح لهم بما طلبوا وتساهل معهم بالصلح حسبما يقتضيه حبّ السلم ونحر في مكانه هديه للكعبة ورجع.

حرب خيبر

وإن بني النضير الذين نزلوا بعد جلائهم في خيبر وخضع لهم أهلها لم يزالوا يسعون في حرب (محمد) وقطع أثره. وهم الذين سعوا في حرب الأحزاب ولم يزالوا على إثارة الفتن، فغزاهم في أواخر السنة السادسة ففتح حصوناً لبني النضير، منها حصن ناعم ومنها القموص حصن بني أبي الحقيق ومنها حصن الصعب ابن معاذ وباقي حصون خيبر إلا حصنين «الوطيح، والسلالم» فان أهلهما طلبوا من (محمد) أن يسيرهم ويحقن دماءهم فسمح لهم بذلك.

فتح مكة

وقد كان في صلح الحديبية أن خزاعة دخلت في حلف (محمد) وبني بكر دخلت في حلف قريش. فعدت بنو بكر وقريش على خزاعة بالحرب العدواني. فجاء مستصرخ خزاعة إلى محمد فتوجه في سنة ثمان بجيشه إلى مكة في عشرة آلاف بعدّة كاملة. ولما خافت منه قريش وأحلافها وضعفوا عن مقاومته لم يحمله سوء أفعالهم معه على الإنتقام منهم. بل دخل مكة بأرأف دخول وأكرم معاملة. فكأنه ساق إلى قريش جيش العفو وامتنان الرحمة والأخلاق.

حرب هوزان

ولمّا سمعت هوزان بفتح مكة جمعت جموعها لحرب (محمد) فقصدهم وحاربهم وغنم أموالهم وذراريهم، فوفد رجالهم عليه بعد أن أسلموا في هزيمتهم طوعاً، فاسترحموه

فخيّرهم بين رد السبي ورد الأمـوال، فاختاروا رد السبي، فـاسترضى المسلمين في ذلك فأجابـوه، فرد السبي وكـان نحو ستة آلاف مـا بين امرأة وطفل، وقـد كانت ثقيف من جملة المنهزمين من جيش هـوزان فرجعوا إلى الطائف وتحصّنـوا بحصونهم لحرب (محمد) فوجه إليهم بعض جيشه.

حرب مؤتة، حرب تبوك

وأمـا بعثـة الجيش إلى الشـام حيث حـاربـوا جيش الـروم والعـرب والـرومـانيين في (البلقان) شرقي بحيرة لوط. وأما مسيره بجيشه إلى تبـوك فكان الداعي لذلك أن هؤلاء تظاهروا بالعـداوة للإسلام و (محمد) واستخفّوا بحرمتـه وقتلوا رسله الذين أرسل معهم كتبه لدعـوة التوحيد. مع أن العادة المستمرة أن الرسـول حامل الكتاب محترم لا يقتل. ولا يقتلـه إلا من تجاهر بـالطغيـان والعداوة لمن أرسلـه. فإن (محمـداً) كاتب الـروم في الـدعوة إلى صـلاح الإسـلام وتوحيـده الحقيقي حينما كـان قيصر راجعاً مع جيشـه من انتصاره على الفرس. فتجرّأ شرحبيل الغساني على قتل الرسول حامل الكتاب. واستعد الروم وأتباعهم لعداء (محمد) وحربه فاستعد لدفاعهم وعدم الخضوع لجرأتهم التي تهدّد دعوة التوحيد والاصلاح.

سراياه وتجريداته

وأما سرايا (محمد) وتجريـداته فكلها كانت دفاعية، يـرد بها كيد الغادرين، ويدافع بها من يستعـد لحربـه ويسعى في الفسـاد والبغي. ولم تكن فيهـا مهاجمة ابتـدائيـة على هادىء مسالم كما يشهد بذلك معلوم التاريخ[1].

* * *

وهكذا نصل إلى ختـام البحث في هذا الجانب من الحديث الـذي أردنا لـه أن يكون واسعاً، لأننـا فضلنا أن لا تكـون الفكرة التي حاولنـا معالجتهـا مجرّد دعوى خـالية من الحجّة والبرهان.

---

(١) الشيخ محمد جواد البلاغي: «الرحلة المدرسية» ص٢١٣ ـ ٢١٧.

وهكذا خلصنا إلى النتيجة التي قررناها في بداية الحديث، وهي أن تشريع الحرب في الإسلام لم يكن لحمل الناس على الدخول في الدين قسراً، وإنما كانت للدفاع عن حرية العقيدة من جهة، وعن الكيان الدولي للإسلام من جهة أخرى.

وبعبارة أخرى.. من أجل الحواجز المادية والمعنوية التي تقف حائلاً بين الدعوة الإسلامية وبين وصولها إلى عقول الناس وأفكارهم ودخولها إلى حياتهم الروحية والمادية.

وهكذا رأينا الجانب التطبيقي أو التنفيذي لهذا التشريع في حياة المسلمين الأولين وفي حروب النبي (ص) وغزواته منسجماً تمام الإنسجام مع الخط التشريعي العام. فقد رأينا في الإستعراض الذي مرّ علينا نوعية الأهداف والدوافع التي انطلقت في تلك الحروب، والظروف التي أحاطت بها، دون أن نجد من بينها هدف الإكراه على الدِّين.

* * *

وقد يجد القارىء نفسه ـ مع هذا الحديث ـ أمام تساؤلات كثيرة حول الحرب في الإسلام وأحكامها ومبادئها وخططها العامة والخاصة.. وقد يطلب الجواب عنها ـ بطبيعة الحال؛ ولكننا لن نستطيع التعرّض لها، لأننا لسنا بصدد بحث عن الجهاد في الإسلام كموضوع مستقل، وإنما نحن بصدد الحديث عن أسلوب الدعوة في القرآن من حيث إنه يمثل أسلوب الدعوة في الإسلام؛ ولهذا كان البحث هنا في موضوع الجهاد وآيات القتال، بقدر صلته بأسلوب الدعوة، انطلاقاً من التهمة التي أثارها الكثيرون حول اعتبار القوة أسلوباً من أساليب الدعوة في الإسلام.

* * *

لا إكراه في الدين[1]

صلة الموضوع بأسلوب الدعوة

لقد أشرنا غير مرة ـ فيما سبق من حديث عن أسلوب الدعوة في القرآن ـ إلى أننا نحاول الخروج من حديثنا بنتيجة واحدة، هي . . أن الإسلام يحاول أن يفتح للناس أوسع أبواب المعرفة قبل أن يدعوهم إلى الإيمان به، ليكون الإيمان واعياً عميقاً . .

ومن هنا نعرف صلة موضوعنا بالفكرة القائلة بأن الإسلام يقرّ الإكراه على الدِّين، ويتخذ أسلوب القهر والقسر سبيلاً من سبل العمل في نطاق الدعوة . . فقد لا تنسجم هذه الفكرة مع النتيجة التي عالجناها وحاولنا الخروج بها من البحث . وحينئذٍ فلا بد من أن نعالج هذا الموضوع على ضوء التعاليم القرآنية الواردة في هذا المجال ما دام القرآن هو الإطار الذي يحيط بموضوع البحث .

* * *

الإكراه في القرآن

لقد جاء لفظ الإكراه في القرآن في آيتين :

١ ـ قوله تعالى : ﴿**لا إكراه في الدِّين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾[2].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[3].

(١ ـ ٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦ .

(٣) سورة يونس، الآية ٩٩ .

وربما نجد إلماحاً إلى ذلك والتقاءً بهذه القضية في قوله تعالى: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. . .**﴾[1].

تلك هي بعض الآيات الكريمة التي تواجنا في موضوع الإكراه. فما الذي نخرج به منها من فكرة؟.

هذا ما نحاول الإجابة عليه فيما يأتي من حديث إن شاء الله تعالى.

مع المفسرين في آية «لا إكراه في الدِّين»

من المفيد لنا أن نقف طويلاً مع المفسرين في الآية الأولى ﴿**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي. .**﴾[2]؛ فنعرض أقوالهم واحتمالاتهم في الآية. . ثم نحاول الخروج بالنتيجة الحاسمة، على ضوء المناقشة والتأمّل.

* * *

ذكر الشيخ الطوسي (ره) في تفسيره «التبيان»، والشيخ الطبرسي(ره) في تفسيره «مجمع البيان» أن للمفسرين في الآية عدة أقوال:

أحدها: أنه في أهل الكتاب خاصة الذين تؤخذ منهم الجزية.

ثانيها: أنه في جميع الكفار، ثم نسخ بالآيات التي أمر فيها بالحرب، نحو قوله تعالى:

﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**﴾[4]. عن السدي وغيره.

ثالثها: أنها نزلت في بعض أبناء الأنصار وكانوا يهوداً، فأريد إكراههم على الإسلام. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.
(٣) سورة النساء، الآية ٨٩.
(٤) سورة محمد، الآية ٤.

رابعها: أن المراد لا تقولوا لمن دخل في الدِّين بعد الحرب أنه دخل مكرهاً، لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره. قاله الزجاج.

خامسها: أن المراد ليس في الدِّين إكراه من الله، ولكن العبد مخيّر فيه، لأن ما هو دِين هو من أفعال القلوب إذا فُعل لوجه وجوبه. فأما ما يكره عليه من إظهار الشهادتين فليس بدِين حقيقة، كما أن من أُكره على كلمة الكفر لم يكن كافراً. والمراد الدِّين المعروف، وهو الإسلام دين الله الذي ارتضاه[1].

* * *

وإذا حاولنا ملاحظة هذه الأقوال التي قدمناها في معنى الآية فسنجد أنها تختلف في ناحيتين

الأولى: في طبيعة مفهوم الآية. من حيث هي واردة في مورد التشريع الذي يتضمن نهي المسلمين عن إكراه غيرهم على اتباع الإسلام، أو هي واردة في مقام الإخبار عن حقيقة واقعة، وهي عدم تحقق الإكراه في الدِّين، لأنه غير قابل له أو لأنه محتاج إليه.

الثانية: في المراد من مفهوم الدِّين في الآية. فهل هو الشكل الصوري وبتعبير آخر «الشكل الرسمي» للدخول في الإسلام، وهو الذي يتمثل في إظهار الشهادتين. أو أن المراد به واقعه الواسع الشامل الذي يرتكز على العقيدة؟

فالذين اعتبروا الآية واردة في مورد التشريع، وهم أصحاب الأقوال الثلاثة، لا بد لهم من اختيار المفهوم الأول للدِّين، لأن واقع الدِّين لا يمكن تعلق الإكراه به، لأن مجاله القلب والفكر، وهما لا يقعان تحت طائلة الإكراه، فلا يمكن ـ والحال هذه ـ تعلق التشريع بالإكراه فيه، نفياً أو إثباتاً. أما الذين اعتبروها واردة مورد الإخبار فسيختارون المعنى الثاني. وقد ظهر وجه ذلك.

ولعل أولئك الذين اعتبروا الآية منسوخة بآيات القتال نظروا إلى الفكرة القائلة بأن القتال شُرع من أجل الإكراه على الدِّين.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ج٢ ص٣١١. طبع النجف. ومجمع البيان في تفسير القرآن ج١. ص ٣٦٤ طبع صيدا.

ونحسب أن العرض الذي قدمناه في آيات القتال قد أوضح خطأ هذه الفكرة، وأبان الأهداف الكبرى التي ارتكز عليها تشريع الحرب، دون أن يكون الإكراه من بينها.

ولعل الذين اعتبروها مختصّة بأهل الكتاب، نظروا إلى الإجراء الذي يتخذه الإسلام مع الكفار والمشركين، فإنه لا يترك لهم مجالاً للتراجع، فإما الإسلام وإما القتل، بينما يترك لأهل الكتاب حرية البقاء على دينهم إذا قاموا بدفع الجزية. وإذاً فالآية مختصة بأهل الكتاب لأنهم هم الذين لا يخضعون لعملية الإكراه بينما يطالب المشركون بالخضوع لذلك.

وربما يرتكز على ذلك أولئك الباحثون، من الاسلاميين وغيرهم، القائلون بأن الإسلام لا يسمح لحرية العقيدة أن تتنفس في ظل تشريعه.

ولكننا نحسب أن مثل هذا الإجراء لا يعطي مثل هذه النتيجة، ولا يوجب تخصيص الآية الكريمة. فإننا نستطيع الإلتزام بالنفي المطلق للإكراه مع الالتزام بذلك.. ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فندعي أن هذه الآية من الآيات التي تأبى عن التخصيص، بملاحظة التعليل الذي يرجع نفي الإكراه إلى وضوح الرشد وظهوره وتميّزه عن الغي.. فإن من غير المناسب أن يستثنى من ذلك الموارد، لأنه يرجع حينئذٍ إلى عدم تحقق العلة فيه، بمعنى عدم وضوح الرشد في ذلك المورد. وهذا ممّا لا معنى له.

وإذا كان الأمر كما نقول.. فلا بد لنا من أن نتأمّل في الصورة التي نستطيع إعطاءها عن هذا الإجراء، بالشكل الذي يبتعد بها عن قضية الإكراه.. وهذا ما سنحاول معرفته قريباً فيما يأتي من حديث إن شاء الله.

* * *

علاقة الآية بفكرة «حرية العقيدة»

وما دمنا في مجال البحث عن الآية وصلتها بالأسلوب العملي للدعوة، فلا بد لنا من أن نقف مع القضية التي ما زالت تثير لدى الباحثين والكتّاب الشيء الكثير من المناقشات والتعليقات.. وهي قضية «حرية العقيدة» وموقف الإسلام منها من حيث

انسجامه معها، ورفضه لها . . فقد حاول كثير من الكتاب أن يستفيدوا من الآية الكريمة تشريع الإسلام لحرية العقيدة، بينما حاول بعض آخر أن ينكروا عليهم تلك الاستفادة.

ونلتقي ـ من الفريق الآخر ـ ببعض الكتّاب المعاصرين وهو يعلّق على هذه الآية فيقول:

«في هذا المبدأ العظيم يتجلّى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه وتحميله تبعة عمله. وهذه هي أخص خصائص التحرّر الإنساني.

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان. ولقد سبق بها الإسلام كل دعوة إلى تحرير الضمير البشري، وإلى كفالة حقوق الإنسان.

والتعبير هنا في صورة النفي المطلق للجنس. . جنس الإكراه. فكأنما يقرّر الإنكار المطلق للإكراه بإنكار وجوده أصلاً. إنه يستبعده عن عالم الوقوع بهذا التعبير الدقيق، الذي لا يقوم مقامه أن يقال مثلاً: «لا تكرهوا أحداً في الدِّين، وكأنما يعلل إنكار الإكراه في الدِّين بأنه قد تبيّن الرشد من الغي، ووضح الطريق لمن يرى. فليكن الإنسان نفسه هو الحكم، وليكن للإنسان نفسه الاختيار»[1].

ونلتقي بالفريق الآخر الذي ينكر على هؤلاء هذه الاستفادة فنجد معالجة هذا الرأي في حديث حول (الحرية في القرآن) لباحث إسلامي جليل، وقد جاء فيه قوله:

«ويسيء البعض فهم القرآن الكريم في هذه الآية ﴿**لا إكراه في الدِّين قد تبيّن الرشد من الغي**﴾ فيظن أن القرآن قد كفل للإنسان حرية التديّن وعدمه، ومنع من الإكراه عليه آخذاً بمبدأ الحرية الشخصية الذي تؤمن به الحضارات الحديثة. ولكن هذا خطأ، لأن الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسان من عبودية الأصنام على أساس التوحيد لا يمكن أن يأذن للإنسان بالتنازل عن أساس حريته، والانغماس في عبوديّات الأرض وأصنامها، كما أن الإسلام لا يعتبر عقيدة التوحيد مسألة سلوك شخصي خاص، كما

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣ ـ ١٤.

ترى الحضـارات الغربيـة، بل هي القاعـدة الأساسية لكيـانه الحضـاري كله. فكما لا يمكن للديمقراطيـة الغربية، مهما آمنت بالحرية الشخصية، أن تسمح لـلأفراد بمناوأة فكرة الحرية نفسها وتبنّي أفكـار فاشستية دكتاتورية، كـذلك لا يمكن للإسلام أن يقرّ أي تمردّ على قاعدته الرئيسية. وإنما يهدف القرآن الكريم ـ حين ينفي الإكراه في الدِّين ـ إلى أن الرشـد قد تبيّن من الغي والحق قد تميّز من الضـلال، فلا حاجة إلى إكـراه ما دام المنار واضحاً، والحجة قائمة، والفرق بين الظلام والنور لائحاً لكل أحد، بل لا يمكن الإكراه على الدِّين، لأن الدِّين ليس كلمات جامدة تـرددها الشفاه، ولا طقوساً تقليدية تؤديها العضلات، وإنما هو عقيدة وكيان ومنهج في التفكير[1].

* * *

ولنا أن نعلق على هـذه المعالجة لنفي الإكـراه في الدِّين والمناقشـة التي ذكرت حـرية الاعتقاد بأن هنـاك فرقـاً بين حرية الاعتقـاد التي تمثّل ـ فيما نفهم ـ أن يُترك لكل إنسان الخيار والحرية في أن يعتقد بما يريد ويؤمن بما يشاء ـ في نطاق ذاته ـ دون أن يحاسب على اعتقاده المجرّد وبين حرية الدعـوة إلى هذا المعتقد وإظهاره، ونشره بين الناس، وتجميع الناس حولـه. ونحسب أن الذي ينافي أساس النظام ويصطدم بـه هو الثاني لا الأول. بل ربما نستطيع أن نأخذ من نفس كـلام الباحث المتقدم ـ الحجّة على مـا نقول ـ حيث اعترف باستحالـة الإكراه على الدِّين.. وإذا ثبتت الإستحالـة في هذا الجانب فما الذي يبقى أمام الحرية من حواجز وموانع؟!

ولنا أن نطرح أمامنـا سؤالاً حول هذا الموضوع عن موقف الإسـلام من الكفّار الذين اعترفوا بالشهادتين رغبة أو رهبـة، لا عن عقيدة واقتناع.. هل حاول أن يحاسبهم على ذلك، مع علمه واطـلاعه على حقيقة أمرهم وواقعـه؟! لا نحسب أن الجواب سيكون ايجاباً بوجه من الوجوه لأن الإسلام قد اكتفى بذلك منهم في اعطائهم حقوق المسلمين.

أمـا التأييد لهذه الفكـرة التي عـالجها الموضـوع بمـوقف الـدول الغربيـة التي تتبنّى الديمقراطية أساسـاً لنظامها من المبادىء النازية أو الفاشية مثـلاً فنحسب أنه لا يؤيّد

(١) محمد باقر الصدر. الأضواء س ٢ ع ١.

الفكرة التي يعالجها. فإن هذه الدول ـ فيما نعرف ـ لا تحاسب الإنسان الذي يؤمن بالنازية أو الفاشستية مثلاً لمجرد أنه يعتقد بها، بل تحاسبه على الدعوة إليها ومحاولة تحويل البلاد إلى قاعدة لها ومركز لنفوذها مما يعرّض أمن البلاد وكيانها للخطر.

أما الاحتجاج لهذه المسألة بقوله: «أن الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسان من عبودية الأصنام على أساس التوحيد لا يمكن أن يأذن للإنسان بالتنازل عن حريّته، والانغماس في عبوديّات الأرض وأصنامها» فنحسب أنه لا يبرّر النتيجة التي خرج بها من حديثه، وهي خطأ المبدأ القائل بأن الإسلام «كفل حرية التديّن وعدمه ومنع من الإكراه»؛ وذلك لأن شجب فكرة العبودية للأرض ولأصنامها قد يصلح تعليلاً لنفي التشريعات التي تؤكد هذه العبودية وتنسجم معها، أو تسمح لها بالامتداد والانتشار. فهو ينفي أن يكون الإسلام قد سمح بعبادة غير الله أو شجّع عليه، كما ينفي أن يكون قد سمح لدعاة الكفر والضلال أن يظهروا دعوتهم وينشروها ويقفوا في طريق امتداد الإسلام وانتشاره.

***

أما داخل الإنسان، عقله وضميره وقلبه، وهو المجال الطبيعي للعقيدة، فماذا يملك الإسلام إزاءه ليحدد حرّيته، وماذا يمكن له أن يفعله تجاهه، غير أن يفتح له نوافذ المعرفة ويدله على طريق الإيمان.

إننا نفهم أن يكون الاختلاف العقائدي ملزماً باتخاذ كل فئة موقف المحاولة الجادة لإدخال الآخرين معها فيما تعتقد، وإقناعهم بما تريد، ولكننا لا نفهم أن يكون ذلك مقتضياً لإدخالهم في خط العقيدة قهراً وقسراً.

وإذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه فكيف نستطيع أن نفهم، من بعد مجيء الإسلام لتحرير الإنسان من عبادة الأصنام، تحديده لحرية الإنسان في أن يعتقد ما يريد كواقع خارجي معاش.

ثم إن القضية لا تكمن في أن الإسلام يأذن بذلك أو لا.. بل تكمن في انه يحاسب على ذلك أو لا.. فإن الحرية تتمثل في الخط الثاني دون الأول، فربما لا يأذن الإسلام في

شيء ولا يرخّص فيه، لأن مثل ذلك يعتبر تخلياً عن أساس العقيدة ولكنه لا يحاسبهم على ارتكاب ذلك.

إن هناك فرقاً كبيراً في الأسلوب بين أن يقول الإسلام للناس: اذهبوا واعتقدوا ما تشاؤون فلا تهمني عقيدتكم بقدر ما يهمني محافظتكم على النظام أو الهدوء أو السكينة وبين أن يقول: أيها الناس هذا طريق الحق فاتبعوه وذاك طريق الشر فاجتنبوه.. إنكم إن سلكتم طريق الخير تهتدوا ولكني لا أكرهكم على سلوك الطريق الذي أريده وإنما أدعوكم إلى سلوكه ثم أترك مسؤوليتكم لأنفسكم، في الوقت الذي أمنعكم فيه من ممارسة أي نشاط في الدعوة إلى الشر.. فإن السير في طريق الشر أمر يتعلق بالإنسان نفسه؛ فهو الذي يتحمل تبعة عمله ويحمل مسؤولية نفسه. أما الدعوة إليه فهو أمر يتعلق بكيان الأمة، لأنه يعرّض عقيدتها للخطر ومجتمعها للانحلال.. لذلك كان من الواجب الوقوف أمامه بقوة، والردع عنه بحزم.

هناك فرق كبير بين هذين الأسلوبين. فالأسلوب الأول يواجه نفس العقيدة فيستهين بها عندما يعلن عدم اهتمامه بنوعيتها.. تماماً كما تفعل كثير من الدول المعاصرة حينما تقول: إن الدولة لا تهتّم بنوعية أديان المواطنين بقدر ما تهتّم بمحافظتهم على حقوق المواطنة والالتزام بالقانون. وليس ذلك إلا لأن الأديان لا ترقى إلى مركز الأهمية في حساب الدولة. إن مثل هذا الأسلوب يصادم نفس العقيدة ويتنافى مع قاعدتها، لأنه انهزام عن مسؤوليتها بالهروب من مهمّة الدعوة إليها. فلا يمكن لأي عقيدة أو لأي كيان يتبنى عقيدة أن ينادي به أو يدعو إليه.

أما الأسلوب الثاني فلا يمثّل من ذلك شيئاً، فهو لا يتنازل أبداً عن العقيدة ولا يتخلّى عن حمايتها، ولا يستهين بمركزها.. ولذا نجده يتبنى مسؤولية الدعوة الملحّة إليها بل يحاول أن يفسح المجال للآخرين ليفكروا بها مرة بعد أخرى وليشعروا بأنهم أمام دعوة لا تَضطهد ولا تكره، بل تنظّم وتحكم على أساس من العدل والنظام.

* * *

وأخيراً إن مبدأ عدم الإكـراه في الدِّين بالمعنى المتقدم لا يتنـافى أبداً مع واقع التفكير الإسلامي وقاعدته، بل هو يشارك ـ إلى حد بعيد ـ في تركيزه وتقويته كما سنرى ذلك فيما يأتي من حديث.

وما نـدري فلعلّ البحث الذي عرضنا لمنـاقشته يهدف إلى معالجة حريـة العقيدة في مظهرها الخارجي المتمثل بالدعوة إليها في المجتمع الإسلامي العام. وإذا كانت القضية كذلك فـلا يبقى لنا حساب معـه بل يبقى الحساب مع أساس الفكـرة التي تنفي إقرار الإسلام لمبدأ عدم الإكراه في الدين بشكل عام.

علاقة الآية بنظرية الاختيار

وهناك اتجاه آخـر في تفسير الآية، يذهب بها بعيداً في مـذهب فلسفي يتصل بالنفي الإسـلامي لنظـرية الجبر، فقـد جـاء في تفسير «البيـان» لأستاذنـا المعظّـم المحقـق الخوئـي (ره):

«إن المراد بالإكراه في الآية ما يقابل الاختيار وإن الجملة خبرية لا إنشائية. والمراد من الآية الكريمة هو بيان ما تكـرّر ذكره في الآيات القرآنية كثيراً، من أن الشريعة الإلهية غير متبنية على الجبر لا في أصولها ولا في فروعها، وإنما مقتضى الحكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإيضاح الأحكام، ﴿**ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيَّ عن بيّنة**﴾[1]، ولئلاّ يكون للناس على الله حجـة، كما قال تعالى: ﴿**إنا هديناه السبيل إمـا شاكراً وإما كفوراً**﴾[2]، وحاصل معنى الآية أن الله تعالى لا يجبر أحداً من خلقه على إيمان ولا طاعة ولكنه يـوضح الحق ويبينه. وقد فعل ذلك. فمـن آمن بالحق فقد آمن بـه عن اختيار، ومن اتبع الغيّ فقد اتبعه عن اختيار، والله ـ سبحانه ـ وإن كان كان قادراً على أن يهدي البشر جميعاً ـ ولو شـاء لفعل ـ لكن الحكمـة اقتضت لهم أن يكونـوا غير مجبورين على أعمالهم بعد إيضاح الحق وتمييزه عن الباطل، فقـد قال ـ عزّ من قائل ـ: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلـوكم في ما آتاكم فاستبقـوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً**

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٢.
(٢) سورة الإنسان، الآية ٣.

فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[1] **﴿قل فللّه الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**[2] **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾**[3] .

أما وجه استفادة هذا المعنى فيكمن في التركيز على وجود معنيين للفظ الكره في اللغة :

أحدهما : يقابل الرضا ، ومن قوله تعالى : **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾**[4] .

وثانيهما : ما يقابل الاختيار، ومن قوله تعالى : **﴿حملته أمه كرهاً﴾**[5]؛ فإن الحمل والوضع يكونان في الغالب عن رضا ولكنهما خارجان عن الاختيار[6] .

ولمّا كانت إرادة المعنى الأول باطلة لوجوه ذكرها هناك تعيّن المعنى الثاني .

ولعلّ الزمخشري في الكشاف يريد هذا المعنى في تفسير الآية حيث قال : **﴿لا إكراه في الدِّين﴾** أي لم يجعل الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكن والاختيار، ونحوه قوله تعالى : **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**[7] أي لو شاء الله لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل ، وبنى الأمر على الاختيار[8] . ولو شئنا أن نجري في هذا الاتجاه فإن الآية ستكون بعيدة عن موضوعنا ، ناظرة إلى مجال آخر يعرض لطبيعة إيمان الإنسان وكفره ، وأنه ليس مخلوقاً معه من الله وإنما هو أمر اختياري له .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٤٦ .
(٣) البيان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ . سورة النحل ، الآية ٣٥ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .
(٥) سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .
(٦) المصدر السابق ص ٢١٢ .
(٧) سورة يونس ، الآية ٩٩ .
(٨) جار الله الزمخشري ، الكشّاف ج ١ .

ولكن . . كيف نفهم هذا المعنى من الآية الكـريمة؟ . وهل يمكن لتفسير الإكراه بما يقابل الاختيار أن يعطينا هذه النتيجة؟ .

هذا ما لا يبـدو لنا في مجال استنطاق الآية . فإن إرادة الإجبـار أو القسر ونحوهما من المعاني التي تلتقي بالإكـراه وتقابل الإختيار لا تختص بالنتيجة المتقـدمة . فقد يجري مع نفي الإكراه في مقام الدعوة ـ على نحو الإخبار ـ كأن تريد الآية بيان حقيقة واقعة ، وهي أن الدِّين ليس من الأمـور التي تقبل الإكراه ، وقد يجري معه في مقـام العمل ـ على نحو الإنشاء ـ كأن تكـون الآية متضمنة للنهي عن إجبار الناس على الـدِّين وتركهم يمارسون عملية الإيمان في اختيار مطلق وحـرية هادئة . وإذا كانت القضيـة تسير في هذا المجال فما الذي يعيّن لنـا المعنى الذي يصرفهـا إلى قضية الجبر والاختيـار. هذا مـا نحسب أنه سيظل بلا جواب . . عندنا على الأقل .

إن القضية تكمن في استنطاق الآية على أسـاس إيجاد الملائمة والانسجام بين فقراتها ليجعل منها وحـدة مضمونية لا تفكّك فيها ولا خلـل . بالشكل الذي تبدو فيـه كلمة ﴿**تبيّن الرشد من الغي**﴾ غير قلقة معهـا . . وهذا مما لا يتوفـر في التفسير المتقدم . فإن ذلك التفسير يفرض على الأسلـوب شكلاً آخر يبـدو فيه ﴿**تبيّن الرشـد من الغي**﴾ أمراً لاحقاً لنفي الأكراه ونتيجة مترتبة عليه ، كأن يقال مثلاً ـ كما ذكرنا سابقاً ـ إن الله لا يجبر أحداً من خلقه على إيمان ولا طاعة ولكنـه يبيّن لهم الحق ويوضحه وقد فعل ، ونحسب أن القارىء معنـا في عدم تكفّل الآية بـذلك ، فإن الفقرة الأخيرة تبـدو وكأنها علة لنفي الإكراه وسبب ينطلق منه . . الأمر الذي يجعل القضية أقرب إلى أن تكون قضية تشريعية تعرض لحيثية التشريع وحكمته .

وللتدليل على ذلك نـود أن نبدّل كلمة بكلمـة على ما ذكره سيّدنـا الأستاذ(ره) ، ثم نلاحظ مدى الإنسجام بين الفقـرتين . فمثلاً نبدل كلمة ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ بقولنا : إن الله لا يجبر أحداً على الإيمان . . فماذا ستكون النتيجة؟

إنها ستكون هكذا . . «إن الله لا يجبر أحداً على الإيمان فقـد تبين الرشد من الغي» ، ولسنا بحـاجة إلى أن نوضح بعـد هذه الصـورة عن الإنسجام . فإنها تبدو لنـا في صورة الآية المتعرضة لفقرتين وقضيتين لا ربط لإحدهما بالأخرى .

وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يتكفّله أسلوب الآية وما الذي نفهمه منها؟ .

إن أسلوب الآية ـ فيما نفهم ـ قد فرض تبيّن الرشد من الغيّ بمثابة حيثية التشريع وحكمته، كما يظهر من تتبّع أمثال هذا التعبير في اللغة العربية . فكأنه يقول ـ فيما يبدو ـ إن الغاية من نفي الإكراه ـ تشريعاً ـ هو عدم الحاجة إليه لوضوح الحق تميزه، وتبيّن الرشد وظهوره، كما إن الإكراه والإجبار ـ كما يذكر السيد محمد حسين الطباطبائي(ره) ـ في تفسير الميزان ـ إنما يركن إليه الآمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمّة التي لا سبل إلى بيان وجه الحق فيها لبساطة فهم الأمور ورداءة ذهن المحكوم أو لأسباب وجهات أخرى، فيتسبّب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه . وأمّا الأمور المهمّة التي تبيّن وجه الخير والشر فيها وقرّر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي الثواب والعقاب . والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسنّة النبوية فقد تبيّن أن الدِّين رشد، والرشد في اتباعه والغي في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا فلا موجب لأن يكره أحدٌ أحداً على الدِّين[1] .

وفي الوقت ذاته نستطيع التأكيد على أن مثل ذلك ممّا يجعل الناس يقبلون عليه ويؤمنون به طواعية واختياراً دون حاجة إلى إكراه؛ لأن الحاجة إليه إنما تكون في حالة عدم توفر ما يهيّىء لعنصر الإختيار أن ينمو ويتحقق في نفس الإنسان . . ومن هنا اقتصرت الآية ـ والله العالم ـ على ذكر الفريق الذي يتبع الهدى، كنتيجة طبيعية لذلك . قال الله تعالى : ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾[2] .

أمّا الفريق الآخر الذي يمعن في عناده وضلاله فهو لا يعاند لشبهة، بل لمجرد العناد الأعمى نتيجة هوىً فاسد أو نزوة منحرفة . . وبذلك لم يكن لوضوح الحق وظهوره أثر بالنسبة إليه . ولذا أعرضت عنه الآية الكريمة .

* * *

(١) الميزان في تفسير القرآن ج ٢ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦ .

ذلك هـو بعض الكـلام في الجانب التفسيري من الآيـة . . وقد رأينـا أن القـول بأن الإسلام يشجب الإكـراه في الدِّين ولا يشجعه ـ استنـاداً إلى الآية الكريمة ـ ليس بعيداً عن الحقيقة .

بقي علينا أن نتعرّف على الجانب الآخـر الذي نستوحيه من الآيـة الكريمة من حيث صلتها بأسلوب الدعوة وعلاقتها به . .

الذي يبـدو لنا أن هذه الآيـة ـ على ضوء ما قـدّمناه من التفسير ـ تلتقـي في روحها بالآيـات المتقدمـة التي عرضت لمهمـة الداعية ومسـؤوليته، وتحديـدها بإبـلاغ الناس رسالات الله وإيصالها إليهم، ولا شيء غير ذلك . . وتبقى مسؤولية الآخرين ومهمّتهم في الإستماع إلى هذه الـرسالـة والإيمان بها بحريـة، دون أن يتعرضـوا لضغط أو إكراه أو إجبار ـ في مجال الدعوة ـ لأن الموقف ليس موقف حرب دامية بين الاسلام والكفر ليكون الموقف حـاسماً لا يخضع لأي حل وسط، وليس الموضـوع مـوضوع دولـة الإسـلام التي تعيش في حالة خطـر دائم من أعداء عقيدتها الأساسية لتكون الحلـول العملية خاضعة لطبيعة الطرف الدقيق الذي تمرّ به الدولة ويتعرض فيه الكيان الإسلامي للخطر . .

ليس الموقف الذي تعيشه الدعوة ـ في هذا المجال ـ هو ذلك الموقف، بل هو موقف الصراع العقيـدي في حركـة الإيمان والكفر، ضمن نطـاق القلب والفكر، حيث تنمـو العقيدة ويستريح الإيمان . . أو بـالأحرى موقف الرائد الـذي يحاول أن يدل الناس على منابـع الخير ومطالع النـور . . ومن هنا كـان الوضـوح في الفكرة والصراحـة في العقيدة والمرونة في الأسلوب هو السبيل الوحيد لربح المعركة والسيطرة على الموقف .

وما على الداعية إلا أن ينهج هذا النهـج ويستخدم هذه الأدوات ـ في مقام الصراع ـ ليربح المعركـة أو ليطمئن ـ على الأقل ـ بأن النصـر سيكـون له في النهاية، عنـدما يهدأ الجو وتصفو النفـوس . هذا هو بعض ما نستـوحيه ونحن نعيش مع الآية الكـريمة . . وعلى ضوء ذلك . . كـانت الآية تنفي الإكراه وتشجبه لأنـه يعتبر أسلوب ضعف وليس أسلوب قـوة . فلا يمكـن لأية دعوة أن تسلكـه إلا إذا كانـت تعاني ضعفـاً في الفكر أو خللاً في العقيدة أو ارتباكاً في الأسلوب .

أمّا العقيدة التي تثق بنفسها وتطمئن إلى قوة بنيانها وسلامة حلولها لمشاكل الحياة، وعمق تفكيرها ونظافة أساليبها، وطهر وسائلها وغاياتها.. أما هذه العقيدة فلا تشعر بحاجة إلى أن تكره أحداً على اعتناقها أو اتّباعها بل تكتفي بعرض أفكارها أمامه بكل صراحة، وتهيّىء له الجو النفسي والفكري الهادىء الذي يستروح فيه روح الإيمان وطمأنينته؛ وبهذا ينسجم التعقيب بقوله تعالى: ﴿**قد تبيّن الرشد من الغي**﴾ مع روح الآية. فإنه إذا تبيّن سبيل الرشد في الدعوة، ووضح طريق الحق فيها، وكانت الدعوة مطمئنة إلى سلامة أدلتها وبراهينها فأي حاجة للإكراه، بل أي معنى له ما دام الإنسان ـ الباحث عن الحق ـ يملك في نفسه قوة التمييز وسلامة الإدراك.. بل ما هي فائدة العقيدة ـ في حساب الإيمان ـ من إنسان لا يشعر في داخله ـ باحترامها ونزاهتها؟!

ونستطيع أن نلمح القوة ـ التي أشرنا اليها ـ في طبيعة الدعوة وصراحتها تجاه هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[1]. فهي الدعوة التي تعرض رسالتها بصراحة دون لبس أو تمويه، مطمئنة إلى قوتها وسلامة بنيانها الفكري والروحي.. تاركة للآخرين أن يمارسوا مسؤوليتهم تجاه أنفسهم. فالإنسان هو المسؤول أولاً وأخيراً ـ في حدود ذاته ـ عن إيمانه وكفره.

ذلك كله في حدود الدعوة وفي اطارها الخاص عندما يكون الصراع بين فكر وفكر وبين عقيدة وعقيدة.. أمّا حين تتحول الدعوة إلى دولة تنظم شؤون الناس وحياتهم على أساس العقيدة، ويتحول الصراع إلى حرب بين كيان الإسلام وبين كيان الكفر ونزاع بين دولتين.. دولة الحق ودولة الباطل.. أمّا حين يتحول الموقف هذا الاتجاه.. فإن الأسلوب يتغيّر والقضية تتخذ لها اتجاهاً جديداً يرتكز على حماية الكيان الإسلامي وتركيز دولة الحق.

* * *

وما دمنا قد وصلنا في حديثنا حول الإكراه إلى مشارف النهاية.. فلا بد لنا من أن نقف قليلاً مع الإجراء الذي يتخذه الإسلام ضد الكفّار من المشركين حيث لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل..

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٩.

فما هو التفسير الذي نستطيع إعطاءه له . . وماذا يكون الإكراه في الدين إن لم يكن هذا إكراهاً .

لا بد لنا ـ في سبيل إعطاء فكرة واضحة عن ذلك ـ من أن نضع في حسابنا مسألة واحدة، وهي أن الإسلام قد قرّر هذه الأحكام واتخذ هذه الإجراءات باعتباره دولة إسلامية ذات سيادة تمثّل سيادة الله على الأرض ـ كما يقول بعض المستشرقين .

ومن الحق لطبيعة القضية وأهمّيتها أن نطرح أمامنا سؤالاً واحداً، وهو: ماذا يمكن للإسلام أن يصنعه تجاه المشركين الذين لا يزالون يهدّدون كيانه وسلامة دولته ويريدون به الشر ويقعدون له كل مرصد؟ . ما الذي يستطيع الإسلام أن يفعله مع هؤلاء للحفاظ على سلامته وعلى فكرته الأولى؟ .

إنه قد جرّب في فترات متعددة أن يلتقي بهم في معاهدات ومواثيق تستهدف أن يعيش الجميع في سلام مدة من الزمن ريثما تستقرّ الأمور وتتركّز ويرجع الحق إلى نصابه . . فماذا كانت النتيجة في هذه التجربة؟

لقد استغلّوا فرصة الهدنة التي حدثت بفعل العهود والمواثيق فعبّأوا أنفسهم وجدّدوا قواهم وهجموا على المسلمين في جيش قوي على حين غرة وفي عملية غدر وخيانة ونقض صريح للعهود . وكانت هذه التجربة بمثابة الدليل الواضح على طبيعة العدوان المتأصلة لديهم، وعلى أنهم غير مستعدين للعيش بسلام مع المسلمين ومع الإسلام بوجه من الوجوه . وبذلك حدّدوا للإسلام موقفه الطبيعي منهم في قرار حاسم صريح .

وهناك ناحية أخرى تتّصل بطبيعة الشرك والكفر بالله بوجه عام، وطبيعة الإسلام والإيمان بالله بشكل عام . . وهي أن الشرك بطبيعته، وكذلك الكفر بالله بوجه عام، لا يمكن له أن يلتقي بالإسلام في أي طريق، لأن القضية ليست قضية اختلاف في تفاصيل العقيدة وفروعها، وليست القضية قضية اختلاف في النظام الذي يسود ويحكم . . بل القضية قضية خلاف في أساس العقيدة، بين عقيدة التوحيد والإيمان بالله التي ترى أن من أولى مهمّاتها العمل على تحطيم مبدأ الصنمية والإلحاد في أي شكل

من أشكالـه، وفي أي وجه من وجـوهه . . لأنّ ذلك يمثّل جـزءاً من عقيدتها . . وبين عقيدة الشرك والكفـر التي ترى في فكرة التوحيـد فكرة تستهدف القضاء عليهـا وتسفيه أحلامها وعقائدها . ومن هنا فهي تـرى أن عليها أن تحاربها ما دامت تملك القوة لذلك وما دامت تجد الجوّ المناسب له .

وإذا كـان الخلاف يعيش في هـذا المستوى (مستـوى الـلاالتقـاء) فكيف يمكن أن يعيش هذان الإتجاهـان في سلام، وكيف يمكن أن يتحقق الصفـاء بين أتباعهما في ظل دولة واحدة؟!

. . ثم إن من مظاهـر الحرية التي يتصوّر السماح بها لعقيدة الشرك ـ لـو قدّر ذلك ـ هي حرية ممارسة الطقوس العباديـة للأصنام مثلاً . . فهل يستطيع الإسلام ـ من وجهة نظـر عقيدتـه ـ أن يسمـح بـذلك ! . . مع أن من أولـى مهمّاتـه هي تطهير الأرض من الأصنام فكرة ومظهراً .

وهنـا نستطيع أن نضع أيـدينـا على بدايـة الجواب عمّا يستطيع الإسـلام عملـه تجاه هؤلاء . . فإن هذا الذي قدمناه يجعل فكرة السماح لهم بالبقاء في ظل الدولة الإسلامية ـ كمواطنين ـ أمر غير عملي وغير واقعي . . حتى لو دفعوا الجزية، فإن ذلك لن يغيّر من الموقف شيئاً .

وهنا لا يبقى أمـامهم ـ إذا أرادوا الحيـاة ـ إلا الاعتراف بالإسـلام . . لأن الشرك ـ في حساب الإسلام ـ يعتبر انحرافاً عن الفطرة الإنسـانية، وانحطاطاً بـالإنسان إلى أقصى درجات البـدائية، ويرى أن مهمّته الكبرى هي نسف قـواعد الشرك والإلحاد في الأرض كجزء من مهمّته الأساسية في رسالته الشاملـة التي تعتمد التوحيد أساساً لحياة البشرية ومنطلقاً لآمالها وأحلامها .

وعلى ضـوء هذا نعـرف أن القضيـة لا تتصل بمجرّد مخالفتهـا لفكـرة بقدر اتصـالها بمنـاوأتها لمصير البشريـة ومستقبلها . . هـذا بـالإضـافة إلى أن الشرك لا يعتبر بمثـابـة العقيدة التي يمكن أن يقام لها وزن في حساب الحريـة لدى الإسلام، لأنها تمثّل السلوك المنحرف للإنسان والوضع غير الطبيعي لحياته .

وانطلاقاً من ذلك . . لا يبقى مجال للإسلام يبرّر لـه السماح بالحرية لهذا المبدأ فكرة واتباعاً، لأنه بمثابة السماح بالحرية لعناصر الإفساد في الأرض . . وهذا ممّا لا يمكن أن يقره أي مبدأ وأية عقيدة مهما كان نوعها .

ومن هنـا لا بد من إخضـاع أتباعـه لسيطرة الـدولة الإسـلامية ، وبـالتالي لسيطـرة الإسلام ، كطريق عملي للسيطرة على عنصر الفساد والإفساد في الأرض ، فكيف يتحقّق مثل هذا الإخضاع؟ .

لا بد من القوة . . ولكنها ليست القوة التي تبدأ العدوان . . بل القوة التي تعتبر آخر تجربة لـلإصلاح . . وليست القـوة التي تعتبر أسلوبـاً من أساليب إدخـال الآخرين في الإسلام . . بل هي التي تحاول إخضـاعهم لسيادة الإسلام ، وتجعلهم أمام الأمـر الواقع في الإعتراف العملي بقوة الـدعوة الجديدة وسيـادتها . . الأمر الذي يجعل عقيـدتهم ـ إن كان الشرك عقيدة ـ تعيش في ضمن النطاق الداخلي لحياتهم دون أن تجد منفذاً تنفذ إليه في الواقع الخارجي للحيـاة التي يحيونها داخل الدولـة الإسلامية . . وبـالتالي ، لتجعلهم وجهاً لـوجه مع التجربـة الحياتيـة للإسلام . . أمـلاً في أن تفتح أعينهم على واقعه النيّر العظيم فتتفتّح له قلوبهم وأرواحهم .

إن بداية الطريق التي تسمح لهم بالإحتفاظ بوجودهم ، وبحقوق المواطنة المحترمة في الدولة الإسلامية . . هي الإعتراف بهذا الشكل الصوري المجرّد للإسلام الذي يتمثل في النطق بالشهادتين ـ وإن لم يكن ديناً ـ كما يقول الشيخ الطوسي(ره) . . وتبقى الخطوات الأخرى التي تتولى تعريفهم الإسلام وما فيـه من خير وأمن وعدالة بعيداً عن جو الشرك وفساده . . أمـلاً في أن يفيئوا إلى الإسلام وتستيقظ فطـرتهم ـ في وعي ويقين ـ على نداء الحق وصوت الله . .

ويبدأ من هنا الجواب عن السؤال الأول حول اعتبار مثل هذا الإجراء إكراهاً في الدين أو لا . . فإن كان المراد مـن اعتباره إكراهـاً في الدِّين كـونه أسلـوباً من أسـاليب إدخال الناس في الإسلام ، كجزء مـن أسلوب الدعوة للإسلام فهـو أمر نشجبه ولا نقرّه . . كما تشجبـه الآية المتقـدمة التي عـرضت لنفي الإكـراه في الدِّين لأن الموقف لم يكن مـوقف

دعوة، ولأن مجالها الفكر والقلب، ولا مكان للإكراه فيهما، كما لا حاجة للإكراه في شكله الصوري ـ من وجهة الدعوة ـ لوضوح الدين وظهور حقيقته بما لا يدع مجالاً للحاجة إلى الإكراه.

وإن كان المراد من ذلك كونه اسلوباً من أساليب إخضاع المشركين والكفار بوجه عام للدولة الإسلامية، كوسيلة من وسائل السيطرة على الشرك والكفر لتقليص ظلّه في الأرض.. من أجل إقامة المجتمع الإسلامي بعيداً عما يفسده ويسيء إليه.. إن كان المراد منه ذلك فلا نمنع منه ومن شرعيّته في نطاق الدولة كعملية وقائية لحفظ نفسها وعقيدتها الأساسية من عدوان المعتدين وإضلال المضلين، ولكنه لا يكون إكراهاً في الدين، بمعنى الإدخال في الدين.. بل بمعنى الإخضاع للدِّين.

أمّا لماذا كان الإخضاع هنا متمثلاً في إلزامهم بالاعتراف الشكلي بالإسلام، فيتّضح ممّا قدمناه آنفاً من محاولة الإسلام للقضاء على عنصر الفساد في الأرض المتمثل بالشرك، وذلك بقطع صلتهم الرسمية به مطلقاً.. كما يتبيّن مما أشرنا إليه سابقاً من أن منح الحرية لهم مع تباين المظهر العقيدي لكل من الشرك والإسلام أمر غير عملي وغير واقعي.. وذلك على العكس من موقف الإسلام من أهل الكتاب الذين يلتقي بهم الإسلام في الطبيعة العامة للدِّين ولتعاليمه، ممّا يجعل أمر منحهم الحرية ممكناً من الوجهة العملية.

ومما يرشدنا إلى ما عرضناه من ارتكاز القضية هنا طبيعة الإخضاع لسيادة الإسلام، لا الإكراه على اعتناقه، هو أن السلطة الإسلامية كانت تلاحظ وجود المنافقين في المجتمع الإسلامي الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام كما حدّث الله عنهم في قوله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾[1] أي في دعواهم الإعتقاد برسالتك التي تتمثل بادّعائهم الشهادة.. لقد كان النبي (ص) يعلم ذلك.. ومع ذلك فقد أجرى عليهم حكم الإسلام.. لأنهم كانوا خاضعين لسيطرة الدولة الإسلامية، كما كان يعلم بوجود عناصر

(١) سورة المنافقون، الآية ١.

قلقة في إسلامها غير مؤمنة به فحاول أن يتألفها . . الأمر الذي يرشدنا إلى أن القضية كانت متعلّقة بالكيان العام للدولة . . الذي أريد له أن لا يرتفع للشرك فيه صوت وأن يبقى منطلقاً مع التوحيد ورسالته .

ويجب أن لا يغيب عنا ـ ونحن في ختام الحديث ـ أن القضية تدور في نطاق الظروف الحربية بين الكفّار وبين المسلمين . . أمّا في غير تلك الظروف فللمسأله حديث آخر ليس مجاله هنا . .

ولقد أحسن جولد تسيهر بقوله : «لقد خلف محمد ما صنعه في محيطه العربي وصية لمستقبل أمته : ذلك هو محاربة الكفر ونشر العقيدة الإسلامية . ولكن هناك شيئاً أكثر من ذلك ألا وهو توسيع نطاق السيادة الإسلامية التي هي سيادة الله ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامي يتّجه إلى تغيير عقيدة الناس بإدخالهم في الإسلام بقدر ما كان يرمي إلى اخضاع الكفار»[1].

***

وهكذا نخلص إلى نتيجة حاسمة في الموضوع . . وهي أن الإسلام لم يمارس الإكراه على الدِّين كطريقة لتغيير العقيدة وإدخال الناس في دينه ، بل مارس في عملية الإكراه هذه إخضاع الكفّار للسيادة الإسلامية حفظاً لكيانه ، وصوناً لسلامة دولته . . إلا أن شكل هذا الإخضاع اختلف ، فتمثّل في أهل الكتاب بفرض الجزية عليهم ؛ فإنه مظهر من مظاهر الخضوع للدولة ، وتمثّل في المشركين بإظهار الشهادتين لأنه مظهر من مظاهر الاعتراف بسيادة الإسلام وسطوته . فالقضية في كلتا الحالتين تهدف إلى الإخضاع أولاً وبالذات وفتح المجال أمامهم للعيش في داخل الحياة الإسلامية والإطلاع على ما فيها من سمو ورفعة ، ثانياً ، من أجل تهيئة الجو أمام الدعوة لتدعوهم إلى الإيمان العميق في هدوء واطمئنان ، ولتدلّل لهم علمياً على صحة هذا الدِّين وسلامته .

---

(١) سير توماس . و . أرنولد . الدعوة إلى الإسلام الترجمة العربية ص ٢٨ . «هامش» .

وذلك من حق الدولة الـذي تمارسه تجاه الأفراد الذين يعيشون في ظلهـا ـ كما ألمحنـا اليه آنفاً . وبهذا يتبين لنا ما أشرنا إليه سابقاً من الفرق بين أساليب الدعوة وبين أساليب الدولة . .

والله سبحانه هو الموفّق والمعين .

* * *

انطلاق الأسلوب السلمي في مركز القوة

أمّا الآن . . فلنـرَ حقيقة التفسير الذي حاول بعض المستشرقين أن يفسروا بـه الآيات القرآنية التي تدعو إلى الرفق واللين والحكمة في الدعوة . . بأنها كانت تابعة لمرحلة زمنية معيّنة لم يكن استعمال القوة فيها أمراً عملياً . .

ولن نطيل في الرد على ذلك سـوى إحالة هذا القـائل إلى القرآن الكريم ليجد أمـامه كثيراً من هذه الآيات التي نزلت في المدينة حين كان النبي (ص) يعيش على رأس الكيان الإسلامي الفتي الذي كان لا يزال يفتح وينتصر كقوله تعالى :

﴿لا إكراه في الدِّين﴾[1] .

﴿قل أطيعوا الله وأطيعـوا الرسول فإن تـولَّوا فإنما عليه مـا حمّل وعليكم ما حمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[2] .

﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾[3] .

﴿ولا تـزال تطّلع على خائنـة منهم إلا قليلاً منهم فـاعف عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين﴾[4] وقـد اعترف بهذه الحقيقة سيرتـوماس . و. أرنـولـد في كتابـه الدعـوة الى الاسلام ، كما أشارت إليها المستشرقة الإيطالية الدكتورة «لوريا قيشيا فاغليري» في كتابها «دفاع عن الإسلام» :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة النور ، الآية ٥٤ .
(٣) سورة الحج ، الآية ٤٩ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ١٣ .

«ويوم نزلت الآيات التي تعالج موضوع التسامح لم يكن الرسول رجلاً حالماً تتبعه مجموعة صغيرة من الحالمين مثله، ولم يكن فيلسوفاً مشلولاً بوعيه لعدد متباين من القوى، ولكنه كان رجلاً في أوج قوته، رجلاً يرأس دولة رفيعة التنظيم، ويقود جنوداً صالحين كان في ميسوره أن يستخدمهم ضد أي امرىءٍ يقع اختياره عليه[1].

وإذاً فلم يعد من الممكن أن نعتبر تشريع التسامح الإسلامي في السلوك البشري أمراً تفرضه طبيعة المرحلة الزمنية، بل هو من القضايا الأصيلة التي تفرضها طبيعة التشريع الإسلامي المرتكز على الرفق والرأفة والمحبة والأصالة . .

وهكذا نصل إلى ختام حديثنا حول ما أثير من شبهات واتهامات حول الأسلوب الإسلامي في الدعوة لنخرج بالنتيجة التي قررناها في بداية الحديث . . وهي أن الإسلام لم يتراجع عن أسلوبه السلمي في الدعوة في جميع تشريعاته، حتى الجهاد، لأنه لا يعتبر أسلوباً من أساليب الدعوة، بل هو ضرورة تفرضه طبيعة الكيان الدولي الجديد للإسلام.

* * *

(١) دفاع عن الإسلام (الترجمة العربية) ص ٣٤.

خاتمة المطاف

وماذا بعد ذلك كله؟

إننا نحسب أن القضية قد وضحت إلى حد بعيد . . ونظن أن هذه المحاولة التي حاولناها قد استطاعت أن ترسم ـ ولو بصورة مجملة ـ الخطوط العامة للأسلوب العملي في الإسلام في مجال دعوة الآخرين إلى الله . . كما ربما تكون قد نجحت بعض النجاح في أن تلقي بعض الضوء على بعض النماذج التطبيقية لهذه الخطوط العامة .

ولكن هل هذا كل شيء . . ؟

لا نحسب ذلك . . فالقضية أخطر من أن تعالج من الجانب النظري والفكري فحسب . . وإنما هي في حاجة إلى المعالجة العملية الواعية الدائبة التي تعيش الحذر والحكمة والترقّب والقلق والإنتظار بكل جوانبها ووسائلها . . فهي دائماً تلاحق خطى العاملين وتراقبها ، فتحسّ بالعثرات وهي تنتصب ـ في عنف ـ على الطريق ، وتدرك الأخطاء التي تقع والإنحرافات التي تحدث ، لتنبّه وتشير وتوجّه ، فتقي العثرة ، وتصلح الأخطاء ، وتصحح الانحراف .

وأخيراً . . إن مجال العمل الإسلامي لا ينحصر في أفق ضيق بل هو يختلف حسب اختلاف الأجواء والظروف . فقد يفرض الموقف في بعض الأحيان العمل الثقافي المجرّد ، وقد يقتضي العمل الاجتماعي المنطلق مع أهداف الإسلام . . وربما يفرض المقام ـ إلى جانب ذلك ـ العمل السياسي الذي يستهدف إفساح المجال أمام الحياة ، لتعيش في إطارها الإسلامي السليم وتتنفس في أجواء إسلامية نقية . .

ولا بد للعاملين في سبيل الله ـ إزاء هذه المجالات التي تحدّدها طبيعة الزمان والمكان والأشخاص ـ من ملاحظة ما تقتضيه الحكمة في كل مجال . . ومراقبة الله سبحانه في كل أسلوب يتبعونه، وكل حركة يتحرّكونها . . فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الأسلوب العملي للإسلام منحرفاً عن مبادىء الإسلام التي تفرض نظافة الوسيلة إلى جانب نظافة الغاية . . وإلا . . فإن الله لا يمكن أن يطاع من حيث يعصى .

وهكذا نستطيع أن نتعرف كيف أن أسلوب العمل يمثّل في خضوعه للحكم الشرعي جزءاً من العمل . . فإن الأسلوب هو إحدى الوقائع التي لا تخلو من حكم في الشريعة الإسلامية التي فرضت أنه ما من واقعة إلا ولله فيها حكم . . حتى أرش الخدش ـ فيما ورد به الحديث المأثور.

ومن هنا فنحن لا نستطيع ـ كمسلمين ـ أن نسير مع سياسة اللفّ والدوران التي يتبعها الكثيرون، من دعاة المبادىء الكافرة والضالّة . . ولأنها لا تنسجم مع روحية الإسلام ونظافة وسائله وأهدافه؛ وإنما هي الصراحة في الفكرة، والصدق في القول والعمل، والإخلاص لله . . والإستقامة في الطريق . .

ذلك هو طريق العاملين في سبيل الله . . الذي حدده الله لهم في كتابه، وأوضحه لهم النبي (ص) في سنّته، والأئمة من أهل البيت عليهم السلام في حياتهم وأحاديثهم . فلا لبس فيه ولا غموض ولا التواء ولا انحراف . . وإنما هو الصراط المستقيم ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1] .

﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾[2] .

﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت . .**﴾[3] .

﴿**ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾[4] .

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٧ .
(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة الشورى، الآية ١٥ .
(٤) سورة فصّلت، الآية ٣٣ .

وبعد . . فهـذا هو أسلـوب الدعـوة في القرآن . . وتلك هي بعض الشبهـات التي حاول الآخرون ، من مستشرقين وغيرهم ، أن يثيروها حوله . .

وقد حاولنا ـ جهد الإمكـان ـ إيضـاح الفكرة وجلاءها . فإن قدّر لنا بعض النجاح فيما حـاولناه . . فهـو غايـة ما نتمنّـاه . . وإلا فحسبنا من عملنـا هذا أن يـرسم بعض الخطـوط ويشق الدرب لـلآخـرين . والله سبحانـه من وراء القصـد وهو حسبنـا ونعم الوكيل وله الحمد أولاً وآخراً إنه ولي التوفيق .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
القسم الأول	
تمهيد	٢٩
وجهة البحث	٣٢
بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٣
مع الدعوة في القرآن	٣٤
دعوة . . ودولة	٣٥
طبيعة الدعوة الإسلامية	٣٧
ما الذي نريده من الأسلوب	٣٩
أسلوب الإسلام في علاج العلاقات البشرية	٤١
أسلوب الدعوة في القرآن	٥٠
مع الآية الكريمة	٥١
الموعظة الحسنة	٥٧
الجدل بالتي هي أحسن	٥٨
اختيار الأحسن هو شعار المسلم في الحياة	٦٠
خاتمة المطاف مع الآية	٦١
نماذج تطبيقية	٦٢
علاقة الآية بفكرة «العقل الجمعي»	٦٧
بين مضمون الآيتين وسورة «الكافرون»	٧٢
وحدة طرائق الدعوة في رسالات السماء	٧٨

مع إبراهيم عليه السلام ٧٩
مع نوح عليه السلام ٨١
مع هود وصالح عليهما السلام ٨٢
مع موسى عليه السلام ٨٢
خاتمة المطاف ٨٤

القسم الثاني

مع المستشرقين في أسلوب القوة في الإسلام ٨٧
مع آيات القتال في القرآن ٩٢
مع حروب النبي(ص) وغزواته ١٠١
لا إكراه في الدِّين ١١٠
الإكراه في القرآن ١١٠
مع المفسرين في آية «لا إكراه في الدِّين» ١١١
علاقة الآية بفكرة «حرية العقيدة» ١١٣
علاقة الآية بنظرية الاختيار ١١٨
انطلاق الأسلوب السلمي في مركز القوة ١٢٩
خاتمة المطاف ١٣١